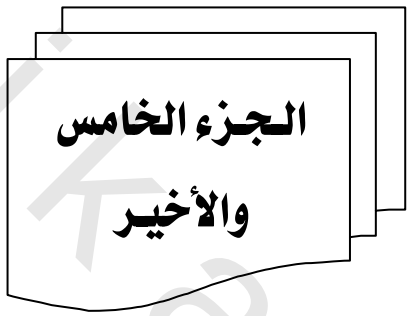

التاريخ: ٧- ١- ١٩٨٣

المكان: محافظة السليمانية بكوردستان العراق

obeikan.com

obeikan.com

وأخيرًا وجدت نفسي بوسط مدينة السليمانية، ولكن الخطر كان محدقًا بي من كل اتجاه وأنا بالزي الكوردي للپيشمرگة، وكنت جالسًا بسيارة التاكسي، وقد طلبت من سائقها أن يقلني إلى فندق السلام بشارع بغداد، لأنني لم أشأ أن أطلب منه أن يأخذني لبناية دائرة الاستخبارات العسكرية مباشرة، التي هي أصلاً تقع مقابل فندق السلام الذي يبعد بخطوات عن بيت عمي كاك نجم الدين رحمه الله، الذي كان بابهم مباشرة على الشارع العام بمحلة عقاري، فأخذني سائق التاكسي على عجل ولم يتوقف إلي ونحن عند عتبة فندق السلام، فترجلت هناك بعد أن أعطيته أجرته، واستدرت لكي أعبر الشارع وهناك سأدخل مباشرة لغرفة استعلامات مديرية الاستخبارات العسكرية للفرقة الرابعة، وبأقل من ثانية تغير مساري ولم أعبر الشارع وكأن أحد قد سحبني من يدي ودفع بي صوب بيت عمي كاك نجم الدين، ولا أدري كيف تغير رأيي لأمر لم يكن بحساباتي منذ أن غادرت قرية گورگه يير بذلك الصباح.

وبعد أن أفقت من تلك المفاجأة وجدت نفسي متجهًا إلى بيتهم الذي كان على مرمى البصر، فارتأيت ألا أذهب لهم مباشرة، وإنما عن طريق حديقة بيتهم الخلفية التي كانت ملاصقة لبيت ابنه الذي سكنت معه ب گورگه يير ، خشية من عيون عناصر الاستخبارات التي توقعت أنها كانت تراقب ذلك المكان، وبذلك كان لازمًا علي أن أدخل بشارع فرعي يوصلني لفرع صغير آخر يؤدي إلى بيت قريبي، ومنه أذهب لبيت عمي عن طريق حديقة بيتهم الخلفية، وبذلك سأتوه عن تتبع عيون أية مراقبة إن وجدت هناك، كاحتراس أمني كان يجب علي أن أفعله، ليس خشية على حياتي وإنما لكي لا أجلب المشاكل لبيت عمي الذي كنت أريد الوصول له من أجل إخبارهم فقط أنني ذاهب لتسليم نفسي، ومن ثم أخرج منهم وأذهب لمديرية الاستخبارات..

لقد فكرت بكل ذلك بجزء من الثانية، وعلى أثرها دخلت إلى ذلك الشارع المتفرع من الشارع العام، ومنه دخلت لشارع آخر متفرع منه، ثم مشيت لمسافة قصيرة وصلت بعدها لبيت قريبي، فطرقت بابه الأمامي بعد أن تلفت خلفي بنظرة خاطفة وجدت فيها أن الشارع كان خاليًا بالتمام، فخرجت لي زوجته وفاجأتني بصراخها الذي تزامن مع هرولتها لبيت عمي من خلال فتحة بجدار حديقتهم الخلفية، المؤدية لحديقة بيت عمي كاك نجم الدين بعد أن تركتني واقفًا بالشارع، وحينها لم أكن أعرف سبب خوفها وهلعها، هل هي عرفتني وخشيت من أنني قد أكون ملاحقًا وبالتالي سيصيبها الأذى؟ أم أنها لم تتعرف علي واعتقدت أنني مجرد پيشمرگة هارب من مفرزة أمنية؟ سؤال لم أعرف أجابته حتى الآن لأنني لم أسألها هي أو غيرها من بقية أقاربي.

عندها أصابني الحرج الشديد، فتلفت حولي مرة ثانية فلم أجد أحد من الجيران قد انتبه لصراخها، فمددت يدي وفتحت الباب الخارجي لأدخل قبل أن يراني أحد، ثم توجهت لباب الدار الذي كان مفتوحًا، فدخلت للدار وبعد فترة قصيرة من الانتظار أرسل عمي رحمه الله أحد أولاده الصغار لكي يصطحبني إلى دارهم، فذهبت معه من خلال فتحة جدار الحديقة الخلفية، وهناك وجدت عمي رحمه الله بانتظاري، والدهشة كانت تمتلك جميع أفراد عائلته الكريمة باستثنائه لأنه رحب بي وضمني لصدره مرحبًا بي، فقلت له:

– عمي العزيز أنا متأسف جدًا لأني جئتكم من غير اتفاق مسبق بيننا، فأنا قبل دقائق كنت على وشك دخول استعلامات مديرية الاستخبارات لكي أسلم نفسي، ولكن عز علي فعل ذلك قبل أن أحيطكم علمًا به من أجل أن تخبروا أهلي لاحقًا لكي يتسنى لهم متابعتي، لأني حتمًا سأودع في سجونهم وهناك احتمال أنهم سيغيبوني لأجل غير مسمى، وبذلك لا أحد منكم أو من أهلي سيعرف ما سيكون عليه مصيري.

فقال رحمه الله:

– لا عليك، اجلس وأرتاح قليلاً، فأنا لن أسمح لك بتسليم نفسك حتى أرسل بطلب والدك لكي يأتي من بغداد، وهو من سيقرر ماذا ستكون الخطوة اللاحقة، فأنا لا أستطيع تحمل المسؤولية إذا ما غدروا بك بدائرة الاستخبارات.

– ولكنه إحراج لكم، لأن إيوائي عندكم تترتب عليه مسؤولية خطيرة ومخاطر جسيمة، أنت أعرف مني كيف ستكون إذا ما علم أحد بوجودي عندكم.

فقال رحمه الله بعد أن حسم الموضوع بعدم سماحه لي بخروجي من بيتهم، وكان ذو خلق راقي قل نظيره بين كل أقاربي في السليمانية:

– اشرح لي كيف أتيت للسليمانية؟ ولماذا لم تأتنا من باب بيتنا مباشرة؟

فحكيت له تفاصيل رحلتي للسليمانية من قرية گورگه يير وحتى وصولي لفندق السلام، وكيف تغير رأيي خلال اللحظة الأخيرة من قراري بعبور الشارع لكي أسلم نفسي لدائرة الاستخبارات، لأجد قدميَّ قادتني إليكم بغاية إعلامكم ثم أذهب لأسلم نفسي. فقال:

– حسنًا فعلت.

عندها اطمئن رحمه الله على سلامتي وسلامتهم بنفس الوقت، باعتباري لم أكن ملاحقًا من أحد وليس هناك من يعلم بوجودي عندهم، وهذا يعني أنه لم تكن هناك ضرورة بنقلي إلى مكان آخر أكون فيه بدرجة أمان أكثر من بقائي بينهم في بيتهم إلى أن يأتي والدي من بغداد، فانصعت لأمره لأن له في نفسي منزلة عظيمة من الاحترام والتقدير، وبالتالي لا ضير من التريث وهي فرصة لكي ألتقط فيها أنفاسي وأخذ قسطًا من الراحة بعد أن أنجزت المرحلة الثالثة والأخيرة من خطتي بالعودة للوطن بنجاح لم أتوقعه سيكون على ذلك الشكل، وبذلك كنت قد أوفيت بعهدي الذي قطعته على نفسي وأشهدت عليه ربي، وأنا الآن بصدد رمي كل أثقالي على الأقدار لتفعل بي ما تشاء بعد أن وصلت لوطني

وسجلت الانتصار ولم يعد يهمني أي تبعات لذلك كالموت أو الحياة، باستثناء احتمال تعرضي للإهانة وهو أمر كنت ولا زلت أفضل الموت على احتمال تعرضي له.

في مساء اليوم نفسه اتصل كاك نجم الدين رحمه الله هاتفيًا بوالدي في بغداد، وأخبره برغبته بملاقاته بأقرب وقت ممكن لأن هناك أخبار حسنة يود إطلاعه عليها بخصوص كاك سرچل، وكنت أنا المقصود بذلك، وقد فهم والدي ما هو المغزى من كلامه وجاء للسليمانية في اليوم التالي فأجلسه كاك نجم الدين بغرفة الضيوف ولم يخبره أنني كنت موجودًا عندهم لتكون مفاجأة لوالدي، وصعد كاك نجم الدين لمخبأي الذي كان بغرفة بالطابق العلوي من بيته، وأخبرني بوصول والدي، وطلب مني مقابلته على أني أحد رفاق ولده سرچل لأنه كان يخشى على والدي من الصدمة التي قد يتفاجأ بها وتضر بصحته، فنزلت إلى الطابق السفلي وسلمت على والدي، فلم يتعرف علي لأن ملامحي وملبسي قد تغير كليًا خصوصًا بتلك الشوارب الطويلة التي هي حصيلة السجون الإيرانية، ناهيك عن أن والدي لم يسبق له أن رآني مرتديًا للزي الكوردي بكل حياتي السابقة، فبادر والدي بالسؤال مستفسرًا عن أحوال ولده سرچل باللغة الكوردية وكانت هي المرة الأولى والأخيرة له وهو يكلمني بها، فضحكت لطرافة ذلك المشهد الدرامي، وعندها تعرف علي والدي ونهضت لكي أقبل يديه وأجلس بجواره، وسألته ممازحًا:

– كيف تعرفت علي؟!

فقال رحمه الله:

– لقد تعرفت عليك من طريقتك في الضحك.

وبعدها صمت ولم يسألني عن تلك الفترة التي قضيتها بعيدًا عنه لستة أشهر، واكتفى بالقول:

– حمدًا لله على رجوعك سالمًا...

وعندما طرح عليه كاك نجم الدين تفاصيل المأزق الذي كنت فيه، أجابه والدي:

– إنه مثل ولدك، فأشر عليه بما تراه مناسبًا بدلاً عني، لأني أجهل كيفية التصرف بهذه المواقف.

فقال عمي موجهًا كلامه لي:

– إن أول شيء يجب عليك اتباعه هو أن تقول إنك كنت مختطفًا وليس هاربًا، وثانيهما هو أنك لم تنتمِ لأي حزب معارض بمحض إرادتك وأنما كنت مرغمًا على ذلك، لأنه لم يكن لديك خيارًا آخر وأنت بين أيديهم، وثالثهما هو أن لا تذكر أية تفاصيل تخص فترة وجودك بإيران سواء كنت سجينًا أو طليقًا، لأن ذكر تلك التفاصيل أمر خطير بسبب الحرب مع إيران حتى لو كان قائله هو من المحسوبين على السلطة وأنت لست منهم ولا أحدهم.

بعد سماعي لتلك النصيحة القيمة؛ أدركت أن عمي رحمه الله يخشى علي من سوء العواقب من ناحية، إضافة لخشيته على ولده الذي كنت معه ب گورگه يير إذا ما انزلق لساني وذكرت أثناء التحقيق أني كنت منتميًا للحزب الديمقراطي بمحض إرادتي، باعتبار أن الضغوط ستجرني لكي أدلهم على الشخص الذي أرشدني إليهم، كوني غريبًا عن المنطقة وبالتالي يجب أن يزكيني شخص يعرفني ويعرفوه، وطبعًا كان لعمي الحق لأنه لم يكن لهم جميعًا أية مصلحة بموضوعي هذا، سوى مساعدتهم لي بدافع خشيتهم على حياتي من باب صلة الرحم التي تجمعني وإياهم باعتبار أن والدي رحمه الله وعمي كاك نجم الدين هم أولاد عم متحابين تربوا ونشأوا بصغرهم في بيت واحد، برعاية جدهم الحاج حسن أفندي لهم ولأبائهم، ومساعدتهم لي ببادئ الأمر كانت نزولاً عن رغبتي وإصراري بالوصول للمناطق التي هي خارج سيطرة الحكومة آنذاك.. فقلت:

– إن ادعائي بكيفية خروجي من السليمانية وحدي أمر صعب علي تنفيذه لأنه يحتاج إلى سرد تفاصيل دقيقة، وأنا لست جيدًا بسرد تفاصيل غير واقعية، وهذا يعني أنني لن أصمد على ترديده عندما سيطلب مني توضيحه طوال فترة التحقيقات التي ستجرى معي، ولذلك فأنا أعتقد أن إفادتي يجب أن أذكر فيها أني خرجت لتلك المناطق بمساعدة أشخاص كنت قد تعرفت عليهم أثناء تجوالي في أسواق البلدة آنذاك، مقابل ثمن معين وليست لي معرفة تامة بأسمائهم أو عناوين سكنهم، وسأمر على هذه التفاصيل سريعًا لأنتقل بإفادتي إلى تفاصيل واقعية وحقيقية هي أكثر أهمية لدى من سيحقق معي، وعندها سيكون موضوع خروجي من السليمانية أمر لا قيمة له لكي نتوقف عنده كثيرًا. أما بخصوص دخولي لقفص الأسرى بطهران وخروجي منه بأعجوبة؛ فهو أمر لن أتنازل عن ذكر تفاصيله لأنه أمانة ودين بعنقي باعتبارها تفاصيل تخص حياة الأسرى العراقيين ومعاناتهم اليومية القاسية، وقد كان لي النصيب القليل منها عندما تذوقت مرارتها، وقد عاهدت ربي أن أوصلها إذا ما كُتبت لي النجاة منها، والخروج لما وراء قضبان زنازينها، وذلك كان أمرًا مستحيلاً وقد تحقق بعونه تعالى، فهل أنقض عهدي بعد أن وصلت سالمًا؟! خصوصًا وأنا مقبل على فترة عصيبة الله وحده هو الذي سيستطيع إنقاذي منها ولا أحد سواه..

بعد أن أفرغت ما بجعبتي من آراء بكيفية الخلاص أثناء المرحلة القادمة؛ اقترح عمي كاك نجم الدين أن نعرض ذلك الموضوع على أحد معارفه من الذين يأمن جانبهم ويحظى بثقتهم، وهو رجل يدعى محمد علي رستم الذي كان رئيس لفصيل كوردي مسلح موالي للحكومة، وهي قوات معروفة لدى عامة الناس بالجاش، فاتصل به هاتفيًا ولم يجده في بيته لأنه كان قد ذهب بمهمة خارج السليمانية، وعندها ترك له رسالة عند أهل بيته بضرورة لقائه عند أول رجوعه إلى السليمانية.. وهنا سألت عمي رحمه الله:

– كيف لك أن تثق بشخص مثله؟!

– إن هؤلاء الجاش قد عملوا حسابًا للمستقبل إذا ما تخلت عنهم الحكومة، وهم بذلك لا يريدوا أن يخسروا العلاقات الطيبة لدى الشخصيات المعروفة عند الناس، وعليه تراهم لا يترددوا بتقديم بعض الخدمات، التي هي بنفس الوقت لا تؤثر على مصداقيتهم لدي دوائر الاستخبارات العسكرية التي يعملون معها، إضافة لذلك فهذا الشخص من عائلة صديقة لنا منذ القدم، من تلك الأيام التي كان فيها أبائنا وأجدادنا يملكون الأراضي الشاسعة بقرية كاني برديني التي كانوا ولا زالوا يسكنونها، وبذلك فهو وأهله لن يتنكروا لتلك العلاقة الحميمة التي جمعتنا وإياهم على مرَّ السنين...

تعجبت بدوري لذلك لأني لم أسمع من قبل بمثل هذا النهج لدى الكورد، هذا لأني كنت قد صنفتهم أنهم مع القضية الكوردية أو ضدها، ولا توجد حالة وسط بينهما، وهذا يعني أنني كنت واهمًا بتحليلي الذي بنيته لظاهر ما طفح من الأمور على السطح، وليس ببواطنها من خلال اللعب على الحبلين كما يقال، فهو وأمثاله متهمين بالعمالة وموصوفين بتسمية الجحوش كعنوان لهم من قبل الشعب الكوردي، ولكني عندما أنظر بإنصاف بعد اطلاعي على بواطن ولائهم لقوميتهم الكوردية حتى لو كان نهجهم هو اللعب على الحبلين، فإني اعتبرت ذلك الشخص المدعو محمد علي رستم أفضل من الذين يتستروا خلف الشعارات القومية البراقة، وهم في الحقيقة السكين التي كانت تذبح أهلها، وپيشمركة (السروه) ممن التقيت بهم في الرضائية وهم خير مثال على ذلك..

هكذا مكثنا بانتظار محمد علي رستم من أجل التباحث معه بشأن موضوعي، وطال انتظارنا لفترة أسبوع أو أكثر بقليل، وحينها قرر والدي العودة لبغداد بعد أن تعهد له ابن عمه كاك نجم الدين بمتابعته للموضوع، وبعد ذلك بيومين

حصل اللقاء حينما جاءنا الرجل وأجلسه عمي بغرفة الضيوف من غير أن يفاتحه بموضوعي، ثم أدخلني عليه لكي يقدمني له، فنهض الرجل فزعًا بشكل ملفت للنظر أول ما وقعت عينيه علي وأنا بهيئتي التي كنت عليها، وكأنه قد وقع بكمين أو فخ قد نصب له بعناية، ولكن سرعان ما عادت إليه السكينة بعد أن سلمت عليه بلكنتي الكوردية الضعيفة، فعاد للجلوس بمكانه وهو مستغرب من ذلك المشهد، ثم بادر عمي بالقول بصوته الدافئ الحنون:

– هذا الشخص أحد أولاد ابن عمي، وهو لا يجيد اللغة الكوردية بسبب نشأته في بغداد،وقد انخرط بصفوف الحزب الديمقراطي بدافع قومي وحبه لكوردستان وأهلها، ولكنه لم يستطع التأقلم مع سياسات الوضع هناك، فعاد بعد أن تقدم باستقالته لهم، وهو يعتزم تسليم نفسه إلى السلطات الأمنية ليُشمل بالعفو الصادر عن البيشمركة، ونخشى عليه من الإهانة والضياع بغياهب السجون.

بعدها استرسل عمي رحمه الله بأسلوب حديثه المميز بالوقار وأخبره بكل تفاصيل ما حصل معي منذ البداية وحتى رجوعي إلى السليمانية، ثم طلب منه المساعدة والمشورة على حل تلك المعضلة، وماذا كان من المستحسن ذكره أو عدم ذكره أثناء التحقيق معي بعد أن أسلم نفسي طوعيًا لدائرة الاستخبارات في السليمانية.

فقال الرجل:

– إن سيناريو اختطافه أفضل باعتباره غريبًا على المنطقة، وهي إفادة مقبولة إلى حد ما، لأنه إذا ذكر أن هناك بعض الأشخاص الذين تعرف عليهم في السليمانية ساعدوه للخروج من المدينة؛ فذلك لن يكون واقعيًا، لأنه لا يوجد مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثقون بشخص يتكلم العربية ويبغي رفع السلاح بوجه الحكومة، لأنهم سيخشون أنه قد يكون عنصرًا في الاستخبارات أو

بالأمن، ولا بأس من ذكر أنه قد انتمى للحزب الديمقراطي مرغمًا بعد أن وقع بأيديهم، لكي يتسنى له الهروب منهم والعودة لاحقًا، لأن للاستخبارات وكلاء معتمدين بصفوف كل الأحزاب، وأنا متأكد أنهم قد أبلغوا عن انتمائه للپيشمرگة وليس اختطافه طبعًا، هذا لأنهم يجهلون الكيفية التي انضم بها لصفوف الپيشمرگة.. وإنني أنصح باستبعاد ذكر أية تفاصيل تخص عبوره لإيران لأن الموضوع سيأخذ منحى آخر وتحقيقًا أطول، ولا أعتقد أن أحد وكلاء الاستخبارات قد أخبر عن عبوره، لأن الپيشمرگة على مدار الساعة يعبروا ويرجعوا من وإلى إيران، وبالتالي هو موضوع لا يستحق الإخبار عنه من قبل الوكلاء العاملين لدى الاستخبارات، وإذا ما سأله المحقق من باب الافتراض هل سبق له أن عبر وعاد من إيران، فيجب أن ينفي ذلك لأنه سؤال روتيني عام..

عند ذلك الحد انتهى عمر محمد علي رستم رؤيته لما يجب علي قوله أثناء التحقيق معي، ثم أضاف مقترحًا راغبًا على ما كان يبدو أن يخرج بمكسب من ذلك السيناريو الذي رسمه، وهو أن أخبر المحققين أنني كنت قد علمت بمخطط لاغتيال الپيشمرگة له، وقد جئت لإخباره بذلك من أجل تحذيره وإنقاذي لحياته، على أساس أن لي معرفة شخصية مسبقة به.. فقلت له:

– إن هذه الرواية ستعقِّد الموضوع أكثر لأنها بحاجة لتفاصيل دقيقة أنا بغنى عنها، ويكفيني ما سأختلقه مرغمًا لرواية اختطافي التي لا أعلم كيف سأتدبرها ناهيك على أن هذا سيؤشر لديهم أنني كنت پيشمرگة حقيقي ولست مرغمًا أتحين فرصة الهروب منهم كما سأذكر بإفادتي..

فقال مجيبًا:

– كما تشاء، وأنا سأكون معك أثناء سردك لتلك التفاصيل بإفادتك وسأساعدك على تخطيها، باعتبار أن الإفادة الأولى لك مهمة جدًا لأنك عليها ستبني أقوالك التي ستعيدها عندما سيطلب منك بأماكن أخرى لكي تحكي موضوعك..

– ولكن موضوع عبوري لإيران وما شاهدته هناك، أمر لا أستطيع التخلي عن ذكره، وأكاد أجزم أنني قد رجعت بسببه..

– هذا شأنك وأنا حذرتك أن هذا الموضوع سيجعل قضيتك حدثًا فوق الاعتيادي وبالتالي فإن النتائج لن تكون مضمونة، ناهيك عن العواقب التي ستكون غير معلومة..

– هذا هو قدري الذي لا مفر منه وأنا أتحمل مسؤولية ذلك..

عندها اتفقنا بشكل كامل على ما سأقوله وما يجب ألا أقوله بإفادتي التي سأدلي بها أثناء التحقيق بمديرية استخبارات الفرقة الرابعة في محافظة السليمانية، وطلب منا الرجل أن نمهله بضعة أيام ليأخذ وقته فيها من أجل الاتصال بالمسؤولين عن التحقيق، بغرض الاتفاق معهم على موعد لغرض إدلائي بإفادتي أمامهم، وشدد علي ألا أخرج إلى أي مكان لأنه سيخبرهم أنني موجود عنده وفي ضيافته، وأنه لن يأخذني إليهم إلا بعد أن يحصل منهم على وعد بعدم الإساءة لي... فشكرناه وودعناه على أمل اللقاء به مجددًا من أجل الذهاب سويًا للإدلاء بإفادتي.

لم يمضِ سوى يومين حتى اتصل بنا هاتفيًا يخبرنا أنه سيأتي ليأخذني بمساء ذلك اليوم.. فتحضرت لذلك بعد أن حفظت تلك الرواية بخصوص اختطافي المزعوم، وما عداها كان أمر سهل باعتقادي لأني سأحكي كامل الحقيقة. وبذلك أكون قد تخليت مجبرًا ولو بجزء يسير من الكذب الأبيض، من إيماني العميق واعتقادي المطلق بمبدأ لم أتخلَ عنه طيلة حياتي، وهو أن النجاة في الصدق، وكان لسان حالي يسخر من القدر الذي جعلني رغمًا عني أستنجد بمن هو محسوب على خيانة القضية الكوردية، بعد أن كنت من أشد المدافعين عنها وفي سبيلها..

في مساء ذلك اليوم حضر محمد علي رستم وذهبت معه إلى مديرية استخبارت الفرقة الرابعة للفيلق الأول، وأنا لا زلت مرتديًا للزي الكوردي الخاص بمقاتلي الپيشمرگة، وهناك كان بانتظارنا ثلاثة من ضباط الاستخبارات برتب مختلفة تراوحت ما بين ملازم أول ورائد ومقدم، إضافة لشخص كان يرتدي بدلة مدنية ولم أتعرف على رتبته وقد علمت بعدها أنه كان مسؤول حزب البعث بتلك المديرية الاستخبارية، وقد دهشت كثيرًا عندما تكلم ضباط الاستخبارات الثلاثة مع صاحبي محمد علي رستم باللغة الكوردية، ومن ذلك علمت أنهم كانوا كوردًا باستثناء المسؤول الحزبي الذي كانوا يكلموه بالعربية، وتلك مفاجأة لم أكن أتوقعها جعلتني أراجع نفسي لأستنتج أنه ما كان لي أن أسلك ذلك الطريق الشائك المتشعب وأنا الغريب عن تلك المنطقة، والجاهل بلغة أهلها وسياساتهم، وعليه فقد كان لازمًا علي أن أعمل كل ما بوسعي لكي أنجو بنفسي من غير أن أتسبب بالإساءة إلى كل طرف من أطراف تلك اللعبة المقيتة لأعود لنفس نقطة البداية التي انطلقت منها بيتي في ببغداد..

عندما جلسنا طلبوا مني باللغة الكوردية إيضاح موقفي، فأجبتهم بكورديتي الضعيفة من أجل أن يصدقوا أنني غريب عن المنطقة ولا أجيد لغتهم، وهذا هو السبب الذي اختطفت من أجله بحسب الإفادة التي تلقنتها خلال اليومين الماضيين:

– أنا أفضل التكلم بالعربية لأنني بغدادي الولادة والنشأة، فمن أين تريدوني أن أبدأ؟

اندهشوا بدورهم لأن مظهري لم يكن يتناسب مع ما قلته بكورديتي الضعيفة ولا يتناسب أيضًا مع رجل بغدادي.. فقالوا بالعربية:

– ابدأ من اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى السليمانية..

فقلت بادئًا ببعض الحقائق:

– لقد كنت أزور السليمانية لمتعابعة معاملتي بخصوص الأرض السكنية التي تقدمت بطلب الحصول عليها من دائرة الإسكان العسكري، عن طريق وحدتي باعتباري أحد المتطوعين في الجيش العراقي برتبة نائب ضابط، حتى حصلت عليها في العام الماضي، وهي تقع بالقرب من مصيف سرچنار السياحي بمنطقة تدعى آبلاخ ورقم القطعة هو كذا وكذا، وفي أخر إجازة دورية لي حصلت عليها من وحدتي العسكرية الكائنة بقاعدة الوليد الجوية التي هي بالقرب من الحدود الأردنية؛ جئت إلى السليمانية بعد أن قضيت من إجازتي بضعة أيام في بيتي الكائن في بغداد، لمراجعة دائرة بلدية السليمانية بغرض استخراج رخصة لبناء الأرض، وحينها رغبت كعادتي بكل مرة عندما أكون في السليمانية بالذهاب لمصيف سرچنار، وبقيت هناك حتى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم الذي لم أعد أتذكر تاريخه، سوى إنه كان بالأيام العشرة الأخيرة من الشهر السادس من العام المنصرم، وقبل رجوعي إلى مركز مدينة السليمانية تملكتني الرغبة أن أتمشى هناك لبعض الوقت..

عند هذه الجملة توقفت لأنني سأدخل بسرد تفاصيل رواية اختطافي المزعوم مستعينًا بما حفظته ذاكرتي لأحداث خطف كنت أطلعت على تفاصيلها وأسبابها، ومنها خطف البيشمرگة لمهندس باكستاني كان يعمل بقطاع الكهرباء، وكنت قد التقيته بالصدفة عندما كنت أسكن بقرية گورگه يير ، وعملت على ترجمة أقواله التي كان يدلي بها بالإنكليزية لمختطفيه من پيشمرگة الاتحاد الوطني الكوردستاني.. وتابعت بإفادتي وكل الحضور كانوا ينصتوا لي باهتمام، فقلت تفاصيل ستبدو لقارئ حكايتي هذه أنها حكاية أخرى بداخل حكايتي الحقيقة:

– وقد تمشيت حتى أصبحت وحدي، وعندها فاجأني رجلان مسلحان جردَّاني من مقتنياتي التي كنت أحملها بجيبي ومنها هويتي العسكرية ومحفظة نقودي،

ثم أمراني أن أذهب معهما وإلا فإنهما سيمطراني بوابل من نيران مسدساتهما، فانصعت لأمرهما لاعتقادي أن هناك سوء فهم أو اشتباه بشخص آخر أو أنهما كانا يريدان سلبي بغرض الاستحواذ على ما كنت أحمله بجيبي من مال، فمشيت معهما دون أن أسبب لهما الإرباك الذي من شأنه قد يجعلهما يقدمان على عمل متهور ضدي، بانتظار أن تسنح لي الفرصة لمحاورتهما بغرض تبيان موقفي إزاء ما كان يدور برأسيهما، باعتباري مواطن بسيط لا دخل لي بما كان يحصل من مشاكل في السليمانية أو ما شابه من ذلك، ولكن الفرصة لم تسنح لي لأنهما لم يتوقفا واستمرا باقتيادي إلى أن أصبحنا عند مشارف المدينة من جهة مصيف سرچنار، والوقت حينها كان قد بلغ فترة ما بعد الغروب بقليل، وعندها طلبت منهما أن نرتاح قليلاً ولكنهما رفضا ذلك وأمراني بمواصلة السير، وقد أسدل الليل علينا ستاره ولم أعد أدري أين كان موقعي ومكاني الذي كنت فيه، حتى وصلنا بعد ثلاث ساعات من المشي المتواصل إلى إحدى القرى وجلسنا لنستريح عند المرتفعات التي كانت تشرف على منازل تلك القرية، وقد أنزلاني إليها عند منتصف الليل، وهناك وجدنا مجموعة أخرى من جماعتهما مدججون بالسلاح المتوسط من بنادق الكلاشنكوف، فسلماني إليهم بعد أن دار بينهم حوار لم أفهمه حينها، ومضت بي تلك المجموعة المسلحة لنمشي مرة أخرى على الأقدام من غير أن يدور بيننا أي حوار، ولم أكن أعلم الوجهة التي يريدون نقلي إليها، مع يقيني أنني كنت قد أصبحت حتمًا خارج حدود مدينة السليمانية، وبذلك استسلمت للقدر ولم يعد يهمني سوى حالة الإنهاك والتعب التي كنت عليها، حتى وصلنا لقرية أخرى وسلموني لمجموعة ثالثة بعد حوار دار بينهم ولم أفهمه أيضًا، والمجموعة المسلحة الثالثة كانت تمتلك سيارة جيب، فأجلسوني وسطهم بحوضها الخلفي وانطلقوا بي حتى وصلنا بعد ساعة من الزمن لإحدى القرى، وحينها بدأت الشمس تتكشف، فنزلنا عند مسجد القرية، وعندها تيقنت أنني قد أصبحت خارج نفوذ الدولة

لأنهم كانوا قد اتخذوا من جامع القرية مقرًا أو ملاذًا لهم. حينها دار أول حوار بيني وبين مسؤولهم الذي كان يعرف التكلم بالعربية إلى درجة استطعت التفاهم من خلالها معه، وقلت له:

– هل لي أن أعرف ما الذي فعلته ضدكم لكي تقتادوني بمسيرة أهلكتني بعد أن أجبرتموني على المشي طوال فترة الليل؟!

فقال:

– لدينا معلومات تفيد أنك أحد عناصر الاستخبارات بالسليمانية.

– هذا غير صحيح على الإطلاق، وهويتي تشهد بذلك وهي موجودة بمحفظة النقود التي استولى عليها رفاقك بسرچنار..

ثم تابعت قائلاً لهم:

– إذا كان لديكم معلومات عني فهذا يعني أنكم كنتم تراقبونني عن بعد، فهل رأيتموني مثلاً أدخل إلى أية دائرة أمنية أو استخبارية بمدينة السليمانية عدا دائرة البلدية التي كنت أراجعها باستمرار من أجل استصدار أوراق بناء لقطعة الأرض التي أمتلكها؟! علمًا أن أولوياتها هي أيضًا موجودة بمحفظتي لبعض وصولات الدفع التي أديتها لصندوق بلدية السليمانية.

– إذًا أنت من الذين جاءت بهم الحكومة من أجل الاستيطان والتعريب؟

– هذا أيضًا غير صحيح لأني كورديٌ أبًا عن جد، كما أني قد حصلت على قطعة الأرض باعتباري موظفًا حكوميًا، ذلك لرغبتي بالسكن والاستقرار في السليمانية حبًا وكرامة وتقربًا لأهلها، ومنهم أقاربي الذين من كثرتهم لا أستطيع أن أحصيهم لك.

– إن كنت صادقًا فأذكر لي من أي عائلة أنت ومن هم آباؤك وأجدادك وأقاربك؟

– إن والدي اسم غير معروف في السليمانية لأنه خرج منها قبل ولادتي، وجدي هو الحاج علي أفندي الذي كان عضوًا بمحكمة السليمانية أيام الملكية،

كونه أحد الأعيان آنذاك، وأبوه هو الحاج حسن أفندي الذي كان قائمقام السليمانية التي كانت تابعة لولاية الموصل أيام العثمانيين، وهو مدفون حاليًا بمسجد قامشان بمركز مدينة السليمانية، وقد بناه عندما كان حيًا يرزق وتسلمته الأوقاف بعد وفاته، وأبوه هو محمد أغا الضابط الكوردي بالجيش العثماني وقد جاء من قرية نورس بكوردستان تركيا إلى السليمانية عند أول تأسيسها، وأحفاد هؤلاء هم الآن كثيرون جدًا في السليمانية..

– إذا كان كلامك هذا صحيحًا فهو تاريخ مشرف، ولكن لماذا أنت في الجيش وليس معنا لكي تخدم أرض أبائك وأجدادك؟!

– هذه وظيفتي، وأنا من خلالها لم أتسبب لكم بشيء من الأذى، لأن واجبي الذي أعمله بهذا المجال الفني بالقوة الجوية هو الدفاع عن سماء العراق من العدوان الخارجي ومنها سماء كوردستان، ولا تنسَ أن عظام القادة من مؤسسي الجيش العراقي كانوا من الكورد، وقد خرج منهم من هو طبيب أو مهندس أو معلم أو أستاذ جامعة وهذا يعني أنه ليس بالضرورة أن يحمل كل الشعب الكوردي السلاح أو يمتهنوا السياسة لكي يكونوا كوردًا نجباء..

وعندها استدار نحو رفاقه المسلحين الذين جاءوا بي وقال لهم باللغة الكوردية كلامًا فهمت من مجمله أنهم قد أحضروا الشخص غير المطلوب الذي كانوا قد جمعوا المعلومات عنه، ثم قال لي بعدها:

– سوف نتحرى عنك من خلال المعلومات التي عرفت نفسك بها، وسنرى ما سيكون من شأنك بعد التحري عنك من خلال تنظيماتنا داخل مدينة السليمانية، وحتى ذلك الحين ستبقى معنا وتصحبنا أينما نذهب، ولكن حذار أن تنفرد أو تتكلم مع أحد ممن حولنا، سواء من الأهالي أو من بقية الأحزاب.

– حسنًا سأفعل كما تريد..

عند هذا الحد انتهى الحوار بيني وبين ذلك المسؤول الكوردي بعد أن تأكدت أنه قد اقتنع بصحة المعلومات والأدلة التي وضعتها بين يديه، وهذا يعني أن حياتي أصبحت بأمان حتى إشعار آخر...

هنا أوقف كلامي المسؤول الحزبي لدائرة الاستخبارات العسكرية قائلاً:

– ماذا كان اسم هذا المسؤول الكوردي؟

نظرت إليه وقرأت بعينيه الريبة والشك بأقوالي، فقلت له:

– لم يكن وضعي يسمح أن أسأله عن اسمه!

فعقب بالقول:

– ألم تعرف إلى أي حزب كانت هذه الجماعة المسلحة تنتمي؟

فقلت على الفور لأني كنت أنتظر منه هكذا سؤال:

– لقد كانوا من حزب الاتحاد الوطني، ويسمون هناك بالجلاليين نسبة لزعيمهم جلال الطالباني..

لقد قلت هذا الجواب الفوري لأني كنت قد علمت من بعض أقاربي أثناء مكوثي عندهم بعد رجوعي للسليمانية بغرض تسليم نفسي، أن محطة الراديو التابعة لحزب الاتحاد الوطني كانت قد أذاعت بنشرتها الإخبارية خبر التحاقي بالثورة بالاسم والرتبة العسكرية أثناء الفترة التي كنت أسكن فيها بقرية گورگه يير ، وأكاد أجزم أن من أوصل تلك المعلومة التي لم تكن حقيقية لكي تذاع براديو حزب الاتحاد الوطني، هو صديقي محمد پيشمرگة السياسي بحزب الاتحاد الوطني، الذي كان يسكن معنا بقرية گورگه يير ، لأنني بحسن النية كنت قد كشفت له عن اسمي ورتبتي عندما سألني عنها ببداية إقامتي مع عديله الذي هو قريبي، لذلك فهو الشخص الوحيد من حزب الاتحاد الوطني الذي تعرف على اسمي وعنواني حينها، وبالطبع فإن دائرة الاستخبارات العسكرية كانت

تلتقط (ذلك البث الإذاعي وتدون كل ما كان يذاع على الهواء، وأعتقد أن سؤال المسؤول الحزبي للاستخبارات العسكرية عن اسم تلك الجماعة المسلحة كان لهذه الغاية...

وبعد تلك المقاطعة لكلامي طلب مني أحد ضباط الاستخبارات متابعة إفادتي، فاسترسلت قائلاً:

– وهكذا كنت مجبرًا على البقاء ضمن مجموعتهم المسلحة التي كانت تتنقل بين القرى وتبيت لياليها بمساجدها، من غير أن أتجرأ بالسؤال عن أي أمر كنت أجهله بخصوص كل ما كان يحيط بي من مظاهر، لأني كنت أخشى استبعادهم لي من مجموعتهم ليرسلوني إلى مكان آخر سأكون فيه مقيدًا بالحركة وبالتالي سوف تنعدم لدي أية فرصة للهروب منهم، لاعتقادي أنني من خلال استمرار وجودي معهم فذلك يعني أني سأكون قادرًا على معرفة موضوع واحد كان يشغل بالي؛ وهو ضرورة تعرفي على تضاريس ومسالك تلك المنطقة لكي أعرف مدى قربي أو بعدي عن مدينة السليمانية أو الأقضية المحيطة بها، وهذا ما سيؤهلني بأن أضع خطة لهروبي منهم في الزمان والمكان الملائمين، هذا من ناحيتي ومن ناحيتهم فإنهم قد أصبحوا مقلين بحذرهم واحتراسهم مني يومًا بعد يوم، الأمر الذي جعلني أشعر أن تصرفهم هذا كان نهجًا مدروسًا بغاية تأهيلي بالانضمام لهم بعد أن تأكدوا بأني بريء من تلك الغاية التي جعلتهم يختطفوني ببادئ الأمر، ومن أجل أن لا يجلب شكلي الانتباه من قبل سكان القرى التي كنا نمر بها أو من قبل المسلحين من بقية الأحزاب، فإنهم ألبسوني الزي الكوردي منذ اليوم الأول لاختطافي، ومكثت على هذا المنوال لفترة أسبوع أو أكثر لاحظت من خلاله أنهم يتوجسون الحيطة والحذر من جهة واحدة بعينها أثناء حراساتهم الليلية، فتوهمت ببادى الأمر أن خشيتهم كانت من الهجوم الذي قد يشنه الجيش العراقي عليهم، حتى تبين لي لاحقًا أن ذلك

التصرف الحذر كان خشية من المجاميع المسلحة للحزب الديمقراطي الذي هم بحالة عداء معه أثناء تلك الفترة لأنهم قد تصالحوا معه بفترة لاحقة، وبأسلوب لا يبعث على الشك استطعت أن أعرف مدى أو قرب ابتعاد الربايا العسكرية للجيش العراقي عنهم بعد أن تيقنت أننا كنا بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية، وعندها قررت الهروب منهم لأتجه نحو تلك الربايا العسكرية التي علمت أنها كانت تبعد مسافة ثلاث ساعات من المشي المتواصل بطريق لا تستطيع السيارات أن تسلكه، وجعلت توقيت هروبي منهم خلال الفترة التي تسبق وقت صلاة الفجر بقليل، لأنهم كانوا ببعض الأحيان يخلدوا للنوم عند تلك الفترة، وهكذا هربت منهم باتجاه الربايا العسكرية وأنا أجري بكل ما أوتيت به من قوة لكي أصلها بوقت أقصر، حتى انقضت ساعتان من الجري المتواصل، وأنا لم أزل بنفس تلك المنطقة ولم أصل لأية علامة تشير بأنني قد أصبحت بمأمن أو قريب من الربايا، وأثنائها أشرقت الشمس وأصبحت مكشوفًا للقاصي والداني بتلك المنطقة المفتوحة، فتوقفت عن الجري وأخذت أسير بخطى معتدلة من غير أن أحيد عن الطريق الحجري الذي اعتقدت أنه سيوصلني لما كنت أبتغيه، وأثنائها حصلت مفاجأة غير متوقعة وهي أني قد وجدت نفسي أمام مجموعة كبيرة من المسلحين وهم يسيروا باتجاهي بالرتل المنفرد، فقررت ألا أتوقف أو أهرول مسرعًا باتجاه آخر، فاستمريت بسيري بشكل اعتيادي كي لا أثير حفيظتهم، حالي حال أي شخص قروي يتجول بتلك المنطقة، ولدى وصولي لمقدمة طلائع ذلك الرتل المنفرد من المسلحين؛ لاحظت أحدهم وهو يعلق على صدره صورة داخل ميدالية للملا مصطفى البارزاني، فعرفت على الفور أنهم من الحزب الديمقراطي الذين كان جماعة الاتحاد الوطني يحترسوا منهم أثناء حراساتهم الليلية، وأثناء ذلك سألني أحدهم وأنا أمر بجانبهم سؤالاً لم أفهم معناه، وحتى لو فهمته فبأي لغة كنت سأجيبه وهو أمر لم أكن متحسبًا

له أن يصادفني عندما قررت الهروب من جماعة الاتحاد الوطني، وعلى الفور خطرت على بالي فكرة طارئة من شأنها أن تجنبني ما قد يأتي على بال تلك المجموعة المسلحة للحزب الديمقراطي باعتباري شخصًا عربيًا يتجول بمهمة استطلاع عسكرية، فقلت له باللغة العربية أنا لا أفهم ما تقول ولكني أسالك أن ترشدني إلى جماعة البارزاني، وقبل إتمامي لتلك الجملة قفز الجميع ليحيطوا بي من كل جانب، وقال لي أحدهم بالعربية:

– من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

فقلت:

– أنا كوردي مثلكم وقد هربت من جماعة الاتحاد الوطني التي اعتقلتني أثناء دخولي لهذه المنطقة قبل أسبوع من أجل الالتحاق بالبارزانيين..

– ولماذا جئت للبارزانيين بالذات؟

– لأننا في بغداد ليس لنا علم أو معرفة بالجماعات المسلحة الأخرى والبارزانيين باعتقادنا هم حماة كوردستان الأصليين..

– كيف عرفت أننا نتواجد بهذه المنطقة؟

– لقد علمت ذلك من نفس الجماعة التي كنت محتجزًا لديها، لأنهم كانوا أثناء حراساتهم الليلية يخشون هجومكم المباغت عليهم من هذا الاتجاه الذي نقف عليه الآن..

وبعد تلك اللحظات الحرجة هدأت نفسي بعد أن وجدتهم قد تقبلوا الموضوع ظاهريًا على أقل تقدير، وأخذوا بطرح السؤال تلو الآخر عن اسمي وعملي وأصلي وسكني، وقد أجبت على كل أسئلتهم بنفس الإجابات التي ذكرتها لجماعة الاتحاد الوطني أثر أختطافهم لي من سرچنار، مع تشديدي برغبتي للالتحاق بهم.. وعندها قال أحدهم بعربيته الضعيفة، وكان يحمل جهازًا لاسلكيًا محمولاً على ظهره:

– لقد سمعت اسمك يذاع على موجة بثهم في الراديو قبل أيام باعتبارك قد التحقت بالثورة..

وبعد تلك الحوارات لم أتأكد بمدى قناعتهم بها, عاودوا المسير بعد أن أوكلوا واحد من عناصرهم الذي كان يجيد اللغة العربية على ملازمتي أثناء سيرهم.. ومرت الأيام وأنا أتنقل معهم من قرية لأخرى، وكنت خلالها قد تعمدت بنهجي أن أقوي علاقتي بتلك المجموعة المسلحة التي تراوح عدد أفرادها على الثلاثين شخصًا، وبنفس الوقت كنت أعمل أيضًا على تعلم بعض المفردات الضرورية من اللغة الكوردية من أجل أن أكون قادرًا على التفاهم مع من لا يعرف منهم التكلم بالعربية، حتى مضى على وجودي بينهم قرابة الثلاثة أسابيع من التجوال بتلك المنطقة، ثم حدث بعدها أمر مهم كان وقعه على نفسي بالغ الأسى، وذلك عندما تهيأت تلك المجموعة بالدخول إلى المناطق التي كانت خارج نفوذهم، على أثر الاتفاقية التي عقدوها مع حزب الاتحاد الوطني من أجل أن لا يتعرض أحدهم للآخر خلال جولاتهم المسلحة بتلك المنطقة التي هي خارج سيطرة الدولة، فخشيت أن تفتضح حكاية هروبي من جماعة الاتحاد الوطني بغاية الالتحاق بهم عاجلاً أو أجلاً إذا ما تلاقينا أثناء جولاتنا بتلك المجموعة التي اختطفتني من السليمانية، وقد صدقت مخاوفي وحدث ما كنت أخشاه بعد أيام عندما لمحني أحد من جماعة الاتحاد الوطني بإحدى القرى, وعلى أثرها أرسلوا شخصًا ليخبر البارزانيين ما كان من أمر اختطافي وهروبي منهم، وعلى أثرها خضعت للاستجواب وواجهوني بهذا الأمر، فقلت لهم: إن أمر هروبي منهم والالتحاق بكم لم يرق لهم فاختلقوا هذه الكذبة للإيقاع بي.

فقالوا:

– نحن لا نخفي عنك أننا قد استفسرنا بطريقتنا الخاصة عن المعلومات التي زودتنا بها عن نفسك وقد اتضح أنك فعلاً كورديًا وتسكن في بغداد، كما أنك

ليست لديك أية صلة بالجهات الاستخبارية بالسليمانية، وهذا ما يهمنا، أما بالنسبة لما قاله عنك جماعة الاتحاد الوطني فهو بتقديرنا نوع من الكذب والخداع لأننا نعرف أساليبهم، وبعد هذه الحادثة استمرت علاقتي بالبارزانيين على ما كانت عليه وأكثر، وعاهدت نفسي على التريث أثناء أية فكرة مستقبلية مستعجلة للهروب منهم بعد تجربة هروبي الفاشلة من جماعة الاتحاد الوطني، وعليه فقد قضيت معهم فترة أخرى لأكثر من شهر كنت خلالها حريصًا على أن أكسب ودهم لأجعلهم ينسوا ما كان من أمري، وقد نجحت بذلك لأنهم جعلوني أحمل السلاح أسوة بباقي المجموعة...

وعند إتمامي ذكر جملتي الأخيرة بحضرة ضباط الاستخبارات، على أنهم جعلوني أحمل السلاح، أكون قد أنهيت سرد حكاية اختطافي المزعوم التي لازلت أتقزز كلما تذكرتها وقد اضطررت لتدوينها لكي يعلم قارئ سطوري أن التحقيق مع الاستخبارات العسكرية العراقية لم يكن بالأمر الهين كما كان مع الاستخبارات العسكرية الإيرانية.. وعند ذلك الحد انتقلت بإفادتي بسرد التفاصيل الحقيقة التي عشتها فعلاً بعلاقتي مع الحزب الديمقراطي باعتباري أحد مقاتليه كپيشمرگة مغلوب على أمره، مع استبعادي بذكر أسماء أو تفاصيل علاقتي التي أستطيع أن أصفها بالحميمة مع صديقي كاك شريف كچل، والودية مع كاك قادر قادر، والمحترمة مع كاك نادر هورامي، الذين كانوا من قادة الحزب الديمقراطي بتلك المنطقة من كوردستان، مع استبعادي أيضًا ذكر أسماء ومواقع القرى التي كانت تتواجد فيها مقراتهم، وبالذات مقري الفرع الثالث والرابع لحزبهم بقرية بيانة، لأنني لم أرتضِ لنفسي أن أكون شوكًا بطريقهم ودليلاً عليهم من أجل تصفيتهم بعد أن بذلت كل جهدي أن أكون وردة عطرة بمسيرة الثورة التي وضعت عليها الكثير من علامات الاستفهام بضميري من خلال نهجها المتبع بتلك الفترة التي كنت مشاركًا فيها...

تابعت أقوالي التي دونها ضباط الاستخبارات العسكرية العراقية بإفادتي أمامهم، بعد أن ذكرت لهم كيف تمَّ اختياري من قبل الحزب الديمقراطي بأكمال مشواري معهم بالمجال السياسي وليس من خلال تشكيلاتهم المسلحة ضمن منطقة محافظة السليمانية، وذلك من خلال نقلي للمكتب السياسي بالمقر الرئيسي لحزبهم الذي لا أحد كان يعلم بمكانه، وعلى أثرها تمَّ تجريدي من السلاح الذي كان عبئًا علي، وأرسلوني مع عدد من أفرادهم الذين اعتقدتهم سيوصلوني إلى المكتب السياسي، من غير علم مسبق أنهم سيأخذوني إلى قضاء مريوان الإيراني، حتى عبروا بي الحدود الدولية وأصبحت أمام الأمر الواقع، وهناك سلموني إلى مكتب الحزب الديمقراطي من غير أن تسنح لي فرصة الهروب منهم أثناء ذلك الطريق الطويل كما كنت أتمنى، وفي مقرهم بمريوان تصادف وصولي مع تواجد بعض الأفراد من حرس خميني الذين يسموا هناك بالحرس الثوري الإيراني، الذين سرعان ما انتبهوا من عدم إمكانيتي التحدث باللغة الكوردية، الأمر الذي استدعاهم أن يحققوا معي...

وعند هذا المفصل المهم من إفادتي لضباط الاستخبارات العراقيين إلى ذلك المنحى، اعتدلوا بجلوسهم وهم متشوقين لسماع بقية إفادتي بعد أن أوشكوا كما كنت أظن أن إفادتي كادت تقترب من نهايتها، وقد كنت حريصًا أن أنقل لهم كامل نص ذلك الحوار على النحو الذي حدث بالفعل بيني وبين الپاسدار صادق وجماعته أثناء جلستنا في بيت صديقي كاك شريف، ثم ذكرت لهم كيف انتهى ذلك التحقيق معي باعتقالي ولم تمضِ سوى ساعتين منذ وصولي لذلك المقر، وكيف أخذتني الاستخبارات العسكرية الإيرانية (الاطلاعات) منهم، لتحقق معي في مريوان، ثم تحولني لسنندج ليحقق معي هناك مدير استخباراتهم المدعو سرهنك (عقيد) توكان، ليحولني بدوره إلى أقفاص الأسرى العراقيين بطهران، بمعسكر يدعى دوژبان مركز الذي يتواجد به المقر العام لدائرة الانضباط

العسكري الإيراني، وكيف كنت بكل تلك المراحل الصعبة مصرًا على أنني أنتمي للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق وجئت إلى إيران بقصد الالتحاق بالمكتب السياسي على أثر صدور أمر نقلي له، وبذات الوقت كنت صامدًا بإنكاري للتهمة الكيدية التي وجهها لي حرس خميني بمريوان على أنني جاسوس أعمل لصالح الاستخبارات العسكرية العراقية.

وعند وصولي لتلك المرحلة من إفادتي تكلمت بإسهاب وشرح وافي بنقل ما شاهدته واطلعت عليه من معاملة قاسية وظالمة للإيرانيين بحق الأسرى العراقيين هناك، مع تبيان مواقف الأسرى التي انقسمت ما بين من هو وطني وآخر خائن وأكثرية صامتة متفرجة ومستسلمة لذلك الواقع المرير بعد أن غُلبت على أمرها، وقد سميت تلك الوقائع بمسمياتها وفاءًا مني لمن كان شريفًا وبطلاً، وانتقامًا من الذين باعوا وطنهم بثمن بخس بعد أن تنكر أحدهم لماضيه وشرفه عندما كان يشار له بالبنان كونه كان مسؤولاً بحزب البعث، باعتباره الأكثر وطنية من غيره المستقلين الذين لم ينتظموا بحزب البعث وأنا واحد منهم..

وعندما وجدت ضباط الاستخبارات لم يستحسنوا كلامي الذي سار بهذا الاتجاه، انفعلت بشكل لا إرادي ورفعت يدي لأخطب فيهم بصوت عالٍ:

– هناك في أقفاص الأسرى العراقيين ضاعت جميع المقاييس التي كنا نتعامل بها كعراقيين من أجل أن نعرف من هو الوطني فينا ومن هو الخائن منا؟ وهناك أيضًا برزت معادن الرجال على حقيقتها بذلك المحك والامتحان العسير حتى بات واضحًا من كان فيهم قد شرب من ثدي أمه حليبًا طاهرًا، ومن منهم كان قد شرب من ثدي الذئاب اللئيمة حليبًا فاسدًا...

وبعد انتهائي من شرحي الوافي لتفاصيل الحياة اليومية للأسير العراقي بإيران شعرت أني قد أزحت أمانة ثقيلة كانت معلقة على أكتافي، وهي رسالة مهمة كان ينبغي علي أن أوصلها، ولم يتبقَ لي من إفادتي سوى تكملة ما كان من أمري مع الإيرانيين بطهران والوسيلة التي عدت من خلالها للعراق، فذكرت لهم كيف تمَّ ترحيلي إلى محافظة أرومية ثم تسليمي إلى المقر الرئيسي للحزب الديمقراطي، وما دار معي هناك، ثم انتقلت بإفادتي لأذكر علاقة المودة التي عملتها مع ذلك الضابط الإيراني الشاب الذي كان يعمل بدائرة الانضباط العسكري الإيراني بمدينة الرضائية بقصد الحصول منه لورقة عدم التعرض وفيها صورتي للوصول لقضاء مريوان على الحدود العراقية، ولم أنسَ ذكر كيف حصلت على الكتاب الحزبي من مسؤول اللاجئين الكورد في الرضائية من أجل إبرازه لنظيره بمكتب حزبهم بمريوان، وكيف وصلت لمريوان عبر اجتياز العديد من المدن الإيرانية، والمخاطر التي كانت تحيط بي بكل لحظة على طول ذلك الطريق الطويل وأنا حر طليق، وكيف اتجهت لمكتب الحزب الديمقراطي أول وصولي لمريوان الذي اعتقلت به ببادئ الأمر، فتوقفت للحظة ثم قلت لهم ما نصه: وعندما دخلت عليهم لم يتعرف علي أحد من القائمين على إدارة ذلك المكتب، حتى ذكرتهم بواقعة اعتقالي بمكتبهم، فتعجبوا كثيرًا لأنهم اعتقدوا أنني قد رُميت للجحيم أو إلى أقفاص الأسرى العراقيين الذي لا يرجع كل من يدخله، وذلك ما اعترف به أحدهم عندما ذكر لي أن زميلاً لهم كان يعمل معهم بإدارة مكتبهم عندما ألقى الإيرانيين القبض عليه قبل أكثر من عام ومنذ ذلك التاريخ لم يروا بعدها له أثرًا.

وعندها أبرزت لهم الكتاب الحزبي باعتباره كان أمرًا من القيادة وعليهم تنفيذه من أجل تسهيل أمري لعبور الحدود لكي التحق بنفس جماعتي في كوردستان العراق، فاهتموا بأمري وطلبوا مني التريث ريثما يجدوا لي من يرافقني من

جماعتهم لعبور الحدود، وهذا ما لم يرق لي لأن ذلك يعني أني سأرجع فعلاً لنفس المجموعة التي كنت معها إذا ما عبرت الحدود بصحبة ذلك النفر من المقاتلين المسلحين، ومن أجل التملص من تلك الصحبة المفترضة أبديت عدم رغبتي بالمكوث مجددًا بإيران بعد كل الذي حصل معي فيها، وطلبت منهم الإسراع بتأمين عبوري للحدود، فأخبروني بوجود شخصين من المهربين المتعاونين معهم ولهم صلة وثيقة بهم، وأنهم سوف يعبروا في صباح اليوم التالي، وبالتالي فإن بإمكانهم أن يرسلوني معهم، شريطة أن أتدبر أمري بعد عبورنا للحدود لأنهم سينفصلوا عني ويذهبوا إلى قريتهم القريبة من الحدود، وهذا ما كنت أسعى له لأنها فرصة مثالية طالمًا تمنيتها من أجل الهروب والرجوع للسليمانية، مؤكدًا بذات الوقت بأني قادرًا على تدبر أمري بعد انفصالهم عني لأني أعرف طريقي جيدًا.

وفي صباح اليوم التالي انطلقت مع اثنين من أولئك المهربين من مركز مدينة مريوان نحو الحدود التي عبرناها ليلاً، ثم افترقوا عني عند الشارع العام المؤدي لقضاء بنجوين، فمكثت هناك حتى الصباح، وقد احتفضت بكل ما حصلت عليه من أوراق عدم التعرض وكان أخرها ذلك الذي تزودت به من مقر الحزب الديمقراطي بمريوان، وعندما حل الصباح توقفت لي إحدى سيارات البيك أب القادمة من بنجوين والمتجهة لمركز محافظة السليمانية، وكان حوضها مملوءًا بركابها القرويون الذين أفسحوا لي المجال لأن أجلس بإحدى الزوايا، وعندها قررت النزول بأول سيطرة عسكرية نتوقف عندها خلال الطريق، ولكن ذلك لم يحصل لأن أفراد السيطرة العسكرية لم يستوقفونا بسبب رداءة الطقس حينها، وتابعت السيارة سيرها حتى دخلت إلى وسط المدينة، ومن هناك استقليت سيارة تاكسي من أجل الذهاب إلى بيت كاك محمد علي رستم بغرض إرشادي إلى الجهة التي يجب أن أدلي بأقوالي أمامها، وها أنا

الآن بين أياديكم، وقد قلت لكم كل الذي لدي من أجل الحقيقة وليس لتبرئة ساحتي، لأنني وصلت لوطني العراق وأنا سالم وهذه وحدها كانت أعظم أمنية لدي، خصوصًا عندما كنت أقبع بقفص الأسرى العراقيين بطهران، وقد تحققت بعون من الله وبالباقي لم يعد يهمني سواء صدقتم أم لم تصدقوا، وتذكروا أنني لم أكن مجبرًا بذكر ما حصل معي بإيران، وقد ذكرتها لأنها الجزء المهم من كل ما حصل معي منذ ستة أشهر مضت...

عند إتمامي الإدلاء بإفادتي المعدلة بحسب ما كانت تقتضيه تأرجح رقبتي التي كانت بوضع مبهم غير مستقر ما بين حياة جديدة أو موت زئام، باعتبار أن تلك الإفادة المنقحة والمدروسة بعناية كانت هي المفصل المهم الأكثر قلقًا من كل التحقيقات التي خضعت لها عندما كنت نزيل الزنازين بإيران، ولا أدري هل كان أولئك الضباط سيسمحوا لي بالجلوس وأنا أدلي بإفادتي كما حدث معي من غير إضافة أو حذف فيها لو أنني ذهبت إليهم مباشرة بأول دخولي للسليمانية لأسلم لهم نفسي كپيشمرگة وليس كمختطف.

على أية حال انتهى الموضوع على الشكل الذي رسمه لي أقاربي والخير بما اختاره الله، ولكي أنهي كل الموضوع طرحت بين أيدي ضباط الاستخبارات العسكرية العراقية ثلاث مستمسكات، اثنين منها حصلت عليها بالرضائية والثالثة أثناء تقديمي لاستقالتي لكاك نادر هورامي، ولكني أدعيت أنني قد حصلت عليها عندما كنت بمريوان، من أجل أن أدعم بها أقوالي لكي أتخلص منها بعد ذلك الأرق والهلع الذي سببته لي وأنا أحملها بجيبي منذ أن دخلت للسليمانية، ولا أدري ما الذي كان سيترتب علي لو أنني قد أُمسكت من قبل السلطات الأمنية وتلك المستمسكات بحوزتي، الجواب واضح لأني حينها كنت سأتهم بالتجسس لصالح إيران ضد بلدي العراق، وحينها لن تنفع ولا تتشفع لي أية حكاية أو رواية أقولها سواء كانت حقيقة أو ملفقة...

وبعد أن تفحص ضباط مديرية استخبارات الفرقة الرابعة لتلك الأوراق خاطبني أحدهم قائلاً:

– هل تعلم أنك كنت محظوظًا لأن تنجو من كل تلك المهالك التي تعرضت لها بإيران؟ وهي لا تقاس مثلاً لو أنك هربت من الجماعة التي اختطفتك لأنه ليس بالأمر الصعب جدًا، باعتباره حدث عادي يحصل ببعض الأحيان عندما يختطفوا أحدًا من السليمانية وبعدها بفترة يستطيع الخلاص منهم أو هم يطلقوا سراحه، في الوقت الذي لم نرَ أو نسمع بأحد قدر له أن يرجع من أقفاص الأسرى العراقيين بإيران، ليعود ويكلمنا عنها كما فعلت أنت.. فنظرت إليهم وقد بدت على ملامحهم الوضوح بتعاطفهم معي، باستثناء ذلك المسؤول الحزبي الذي لم يرفع عينيه عني المتشككة طوال فترة إدلائي بإفادتي.. فقلت لهم صادقًا بكل كلمة تفوهت بها لأنها خرجت من قلبي مباشرة:

– إن صراحتي في البوح بما قلته عن مشاهداتي بإيران هي نتيجة اعتقادي أن ذلك هو واجب علي بعد أن اختارني القدر رغمًا عني لأكون شاهد عيان لتلك الجرائم المنكرة التي يرتكبها الفرس بحق أسرانا هناك، وأنا لا أبالي بمن لن يصدقها (وكنت أقصد بذلك الكلام الرد على النظرات الخبيثة التي كان ذلك المسؤول الحزبي يرمقني بها) لأنه بالتأكيد ومهما كان شأنه فإنه لن يكون قادرًا على إرجاعي لتلك الزنازين البغيضة للإيرانيين بأقفاص الأسرى العراقيين، وما عدا هذا فالموضوع برمته لم يعد يهمني إلى أين ستنتهي نتائجه بعد أن وصلت سالمًا لوطني، وأرجو أن تسجلوا من فضلكم هذه الملاحظة بمحضر أقوالي التي دونت بإفادتي، كما أرجو ألا يساء فهم كلماتي هذه على أنها تحدي لكل من يطلع عليها، لأنها ببساطة شديدة هي عودة مواطن عراقي غيور رمت به الأقدار حيث لا يشتهي، فأبى أن ينزلق بمستنقع الخيانة على الرغم من كل المصاعب والضغوط التي واجهته، حتى بات أكثر صلابة وقاومها

وحيدًا بتلك الغربة، ولم يكن يمانع أن يتحالف مع الشيطان بعينه من أجل أن يعود ليعيش وسط أهله وأحبته من العراقيين، وأنا أقولها بصراحة تامة أنني بسبب الذي أطلعت عليه بإيران، وشاهدتها بأم عيني تقرع بطبول الحرب بكل زقاق وشارع ومدينة لتجيش الجيوش وتحتل العراق، فإنني أجد اليوم نفسي متمسكًا أكثر من أي وقت مضى بهذا الوطن العراقي، راجيًا ألا يزايد علي أحد من الذين سيعنيهم أمري وتقريرهم لمصيري، ومن ناحية أخرى بخصوص مشاهداتي البسيطة لما عايشته بأطراف السليمانية بتلك المناطق التي هي خارج سلطة الدولة؛ وانتشار المظاهر المسلحة فيها، فذلك باعتقادي موضوع آخر، لأنهم أولاً وأخيرًا عراقيون لهم وجهة نظر، مهما اختلفتم معهم فيها، لأنها بكل الأحوال مشاكل آنية غير مبنية على الحقد والبغض والكراهية، وهي مسألة بالإمكان تسويتها عبر الحوارات الجادة لأنهم شركاء في هذا الوطن الواحد، وهذا الأمر لن يكون جديد، فقد سبق أن حدث مرات عديدة، وبهذا فلا يمكن مقارنتهم بالفرس المتغطرسين والمتخندقين بالعنصرية الصفراء الذين يبغوا استباحة دمنا وعرضنا ووطننا سواءًا كنا عربًا أو كوردًا...

عند هذا الحد انتهى الحوار مع ضباط الاستخبارات الذين طلبوا من صاحبي محمد علي رستم أن يأخذني معه إلى بيته، ليرسلني لهم في الصباح من أجل تدوين أقوالي التي سمعوها مني بذلك المساء، مع رجائهم بتغييري للزي الكوردي الذي كنت أرتديه، فودعناهم واتجهنا بسيارته إلى بيت عمي كاك نجم الدين من أجل أن أقضي ليلتي عندهم وينصرف هو لبيته، وقبل أن أودعه اعترف لي أنه كان على خطأ عندما اقترح عدم ذكر الأحداث التي حصلت معي بإيران لأنه لم يكن يعلم بمدى أهمية تلك المعلومات التي ذكرتها عن أحوال الأسرى العراقيين بطهران..

وفي الصباح وعند بداية الدوام الرسمي، ارتديت ملابسي المدنية التي كنت قد تركتها في بيت عمي كاك نجم الدين بالعام الماضي، وقد وجدتها واسعة جدًا على مقاسي الجديد بسبب الهزال وخسارتي لحوالي العشرين كيلوجرام من وزني، وتوجهت وحدي إلى استعلامات دائرة الاستخبارات العسكرية، وهناك كان بانتظاري ذلك المسؤول الحزبي الذي أوكلت له مهمة تدوين إفادتي كما حكيتها لهم بالأمس ليكون هو المحقق المسؤول عن هذه القضية، فبدأنا بالتدوين من أول الحكاية وحتى نهايتها، وكان محققي الجديد يحذف من إفادتي ما يراه غير مهم، ويختصر الأخرى باعتبارها تفاصيل مطولة بالرغم من أهميتها أثناء إملاءه للكاتب الذي جلس إلى جوارنا حتى انتهينا من ذلك مع انتهاء الدوام الرسمي، وأصبحت لدينا أضبارة يحتاج كل من يرغب بالاطلاع عليها لساعتين من القراءة المتواصلة، وعندها سألته ما عسى أن تكون الخطوة التالية، قال لي:

– سوف أقدم إفادتك إلى مدير الاستخبارات الذي حتمًا سيحولك لوحدتك العسكرية بعد أن يرسل نسخًا منها إلى مديرية الاستخبارات الجوية ومديرية الاستخبارات العسكرية العامة، وباستطاعتك الآن العودة لبيت مضيفك محمد علي رستم، لتعود لنا غدًا صباحًا، فودعته على أمل اللقاء به في الصباح بعد أن وجدته قد غيَّر من أسلوبه المتشكك الاستفزازي معي الذي عاملني به بالأمس وأصبح متعاونًا ظاهريًا أو هكذا كان يبدو...

عند خروجي من دائرة الاستخبارات وجدت أن الوقت كان مبكرًا بالعودة لبيت عمي رحمه الله ونحن بوقت الظهيرة، فانتهزت الفرصة وتوجهت لزيارة قبر جدي الأكبر الحاج حسن أفندي بجامع قاميشان بوسط البلدة، ثم ذهبت بعدها لزيارة عمتي الحاجة التي تفاجأت بوجودي وانتابها بعض الذعر لأنها لم تكن تعلم برجوعي للسليمانية معتقدة أنني قد جئتها متخفيًا من أعين السلطات، ثم

توجهت بعد زيارة عمتي رحمها إلى بيت ابنها البكر الذي لم يكن له علم بأي شيء عني، وبعد كل هذا رجعت لبيت عمي رحمه الله بوقت الغروب، فوجدتهم كلهم بانتظاري لأن صاحبنا محمد علي رستم كان قد كلمهم تليفونيًا لعدة مرات لأتحضر للذهاب معه لدائرة الاستخبارات التي كانت قد طلبت منه إرجاعي لهم بناء على أمر مدير الاستخبارات الذي اطلع على إفادتي وأمر باحتجازي لديهم حتى يتم ترحيلي لوحدتي العسكرية، مخفورًا بصحبة حارس عن طريق دائرة الانضباط العسكري، وهذا يعني بالتأكيد أن حارسي العراقي سيضع القيد بيدي من جديد..

اتصلنا على الفور بمحمد علي رستم الذي حضر على عجل وأخذني إليهم، وهناك أودعوني بغرفة الحرس ثم أغلقوها علي وطلبوا مني أن أناديهم إذا ما احتجت إلى أية مساعدة، وهذا التصرف المنحاز لجانبي كان من أجل خاطر صاحبي الذي أخذني إليهم، لأنه من المفترض بالأحوال الطبيعية إيداعي بزنزانة سجنهم، فتقبلت الموضوع على أنه لا يعدو سوى تدابير أمنية كان المقصود منها خشيتهم على سلامتي من حدوث مفاجآت غير متوقعة لأني كنت بذمتهم من الناحية الرسمية..

وفي الصباح ناديت على الحارس من أجل أن أغتسل، فأخرجني أحد الحراس وسألني عن حاجتي، فقلت له:

– أنا جائع وبودي إرسال من يشتري لي الإفطار من أحد المطاعم قبالة مديريتكم.

فأخذني لاستعلامات المديرية وكان فيها اثنان من المراجعين اللذين جلسا سويًا بإحدى أركانها، وكانا شابين يرتديان الزي الكوردي، فأجلسني خفر الاستعلامات وذهب ليطلب من حرس البوابة تأمين حارس كي يصطحبني إلى

إحدى المطاعم القريبة قبالتهم بجوار فندق السلام، وبعد أن اختلى المرجعان بي بغرفة الاستعلامات، باغتني أحدهم وسألني باللغة الكوردية:

– كاك سرچل كيف حالك؟

عرفت على الفور أنها مكيدة مدبرة من ذلك المسؤول الحزبي للإيقاع بي، فأجبته على الفور بنبرة غاضبة:

– هل تعرف من أكون؟!

فلم ينطق بكلمة واكتفى بإشارته بيده صوب منطقة شهرباژير وكأنه كان يريد القول إنه يعرفني هناك أثناء تواجدي لما وراء جبل كويژه عندما كنت پيشمرگة، فأجبته بحزم:

– انظر يا هذا.. أنا كنت مختطفًا بتلك المنطقة التي تشير لها بيدك، والأفضل لك ألا تعرفني لأني بحاجة لبعض الشهود كي أثبت ذلك..

وعندها طأطأ برأسه أرضًا وكأنه قد تلقى لكمة على فمه، وانتهى الموضوع عند ذلك الحد وعاد بعدها خفر الاستعلامات بأحد الحراس من أجل مرافقتي إلى إحدى المطاعم القريبة، بعد أن أفسح المجال الكافي لذلك المراجع الذي تعمد أن يكلمني بغيابه، وعند رجوعي لدائرة الاستخبارات بعد أن تناولت إفطاري لم أجد أحد منهم جالسًا بغرفة الاستعلامات فتيقنت أن مهمتهم قد انتهت باعتبارهم وكلاء للاستخبارات، وقد تمَّ استدعائهم خصيصًا من أجل معاينتي إن كنت نفس الشخص الذي أخبروا عنه عندما كنت أتجول بطليعة المجموعة القتالية للحزب الديمقراطي وأنا بكامل سلاحي، وقد كنت محقًا باستنتاجي هذا لأنه لم يكن لأحد من كل أهل السليمانية بتلك الفترة أن يتجرأ ليسلم على أحد الموقوفين أثناء تواجده بأية دائرة أمنية، حتى لو كان ذلك الموقوف هو أخيه، ومن هذا يتضح السبب الذي استدعيت من أجله بالأمس من قبل دائرة الاستخبارت، لأنه حتمًا كان بقصد عرضي على نفر من وكلائهم للتأكد من أمر لم أفهمه ولا زلت أجهل

سببه حتى الآن، هذا لأنني كنت قد اعترفت لهم بكل شيء باستثناء كيفية خروجي من السليمانية والطريقة التي التحقت من خلالها بالمجاميع المسلحة للحزب الديمقراطي كپيشمرگة، وهذا الأمر يعجز عن كشفه جميع وكلائهم مهما كان عددهم لكي يثبتوا العكس وكما حصل فعلاً، فما بالكم بتلك التمثيلية الرخيصة والهزلية التي اعتمدوها لكي يعرفوا حقيقة أمري..

على أية حال فصدري كان واسعًا لهضم هكذا سلوكيات استخبارية هزيلة، وقد تناسيت ذلك الموضوع لأنه لن يقدم أو يؤخر بمجريات الأمور بشيء، مؤكدًا بنفس الوقت أهمية اعتماد مبدأ كنت ولا زلت متمسكًا به؛ وهو أن النجاة في الصدق، لأنه السلاح الوحيد الذي لن يعرضني للإحراج بكل الحالات الصعبة التي قد أتعرض لها..

ومرَّ ذلك النهار بسلام حتى جاء المساء وأنا لم أزل محتجزًا لديهم من غير أن أخضع لتحقيق ثاني، فناديت على الحارس لأطلب منه إبلاغ ضابط الخفر برغبتي في مواجهته، فطلب مني الانتظار ريثما يخبره بذلك، وعاد بعدها ليأخذني إليه، فوجدت أن ضابط الخفر هو نفس ذلك المسؤول الحزبي الذي طالما أرقني بشكوكه ودسائسه الرخيصة على الرغم من إخفائه المتعمد لها لكي لا تظهر بالعلن، لحسابات كنت أجهلها أيضًا، فقلت له بعد أن سلمت عليه أني أريد مكالمة صاحبهم كاك محمد علي رستم بالهاتف، فأجابني أنه لا مانع لديه من ذلك، فسألته أن يزودني برقم هاتف بيته، حينها أدعى أنه لا يعرف رقم هاتفه، فطرأت على بالي فكرة الاتصال ببيت عمي كاك نجم الدين، فوجدت نفسي قد نسيت رقم هاتف بيتهم، وعندها اضطررت أن أتصل بهاتف بيت عمتي الحاجة لأني كنت أتذكر رقم هاتفها من أجل أن تتصل هي بدورها ببيت ابن عمها كاك نجم الدين لأنهم على معرفة برقم هاتف صديقهم محمد علي

رستم الذي كنت أريد منه أن يتوسط لي ليطلب من رفاقه بمديرية الاستخبارات أن يعجلوا بإرسالي لوحدتي العسكرية... لهذا زودت ضابط الخفر برقم هاتف عمتي عندما طلبه مني واتصل بها وسلم عليها باللغة الكوردية التي يبدو أنه كان يجيدها، ثم ناولني سماعة الهاتف لأكلمها، وبدأت قولي لها باللغة العربية إنني موجود بدائرة الاستخبارات وأنا بأحسن حال، فقاطعتني وهي تردد بخوف وهلع الدعاء تلو الآخر ضد أولئك الذي اختطفوني، وهي تعلم جيدًا أن هذا الأمر كان مجرد فبركة ادعيتها وهو لم يحصل معي فعلاً، من غير أن تعطيني المجال لأن أكمل حديثي لاعتقادها أن دائرة الاستخبارات كانت تتصنت على تلك المكالمة، حتى نفذ صبري وقاطعتها قائلاً:

– نعم يا عمتي العزيزة لعنة الله على كل من تسبب لي بالأذى ولكن اسمعيني من فضلك..

فسكتت لبرهة، وقلت لها ما نويت أن أطلبه منها بخصوص ضرورة الاتصال ببيت ابن عمها كاك نجم الدين، لكي يرسلوا لي كاك محمد علي رستم لحاجتي له بخصوص موضوع شخصي.. وعند انتهاء المكالمة علق ذلك المسؤول الحزبي بابتسامة خبيثة صفراء على شاكلة المحققين الفرس الذين تبسموا لي أثناء تحقيقاتهم معي بإيران، قائلاً: يظهر أن عمتك تجيد اللغة العربية أيضًا؟ فلم أعلق على ما قاله بشيء وانصرفت لأرجع لغرفة احتجازي بعد أن شكرته على مضض.

وعند الصباح صدر كتاب ترحيلي لوحدتي العسكرية مخفورًا عن طريق دائرة الانضباط العسكري في السليمانية، التي استلمتني منهم وأودعتني السجن، الذي كان لا يقل قذارة عن أقفاص الأسرى العراقيين بطهران، فوجدت لي مطرحًا خاليًا من أرضه التي كانت أشبه ما تكون بأرض مرافق صحية بحي

شعبي، وعندها رميت بنفسي لأستلقي هروبًا من الهموم، التي كانت قد أثقلت على صدري من جديد، وسط ذلك الزحام الشديد للمساجين الذين هم عادة ما يسألوا أي نزيل جديد سؤال مفاده: ما الذي فعلته؟ ماهي تهمتك؟ فابتسمت ساخرًا من هذه الدنيا وتقلباتها العجيبة، واحترت بماذا أجيبهم لكي أشبع فضولهم، لأنه لم تعد لي رغبة بالكلام بعد سردي الطويل لفترة أربع ساعات متواصلة من الكلام لوقائع مؤلمة تخللها بعض ما يسمى بالكذب الأبيض أثناء الإفادة التي صرحت بها لضباط دائرة الاستخبارات العسكرية في السليمانية..

وأستطيع القول إني أثناء دخولي لهذا السجن كنت قد بدأت أول خطواتي برحلة أخرى من العذاب المركز بهذه المرة، وكأن كل تلك العذابات التي عشتها بإيران لم تكن كافية من أجل أن أتعلم الدرس الذي لم ولن أتعلمه حتى الآن، وهو الذي يدعوني بتغليب مصالحي الشخصية والعمل على أساسها بأي مصلحة سواء كانت وطنية أم قومية أو إنسانية، وهو الأمر الذي كنت ولا زلت أرفض ممارسته بشدة طوال حياتي وحتى الآن، لأن الرقيب الذي ما انفك يلازمني متربعًا بداخل ضميري وهو الحاضر على الدوام بشكل يقظ يتصدى بالمرصاد لكل شاردة وواردة بتفاصيل حياتي، وبتلك اللحظة بالذات سألت نفسي إن كنت قد ندمت على رجوعي للعراق لأنال هذا الجزاء، فجاءني الرد سريعًا بكل ثقة: هيهات أن أندم على أمر كان مقضيًا. وكان جواب ضميري مبنيًا بكل يقين أن ربي لن يتخلى عني بعد أن أوفيت له بعهدي وأنجزت ما كان يجب أن يفعله كل رجل يحترم نفسه ويوفي بكلمته.

وبعد قضائي ليلتين بذلك السجن الزريبة من غير مأكل أو مشرب، وهو أمر لم يكن جديدًا علي وقد تعودت عليه، نودي باسمي لأخرج ويستلمني مأمور من أحد جنودهم بغرض تسفيري إلى دائرة الانضباط العسكري بمحافظة كركوك،

وعندها وضعت القيود بمعصمي يداي من قبل ذلك الجندي الذي سيصطحبني، وكان من سكان محافظتي بغداد وكان شخص ودود للغاية كلمني بكل لطف واقتادني وكأننا كنا على معرفة مسبقة، الأمر الذي شجعني بعد أن وجدته متعاطفًا معي من غير أن يعرف أي شيئًا عني، سوى أنني من سكان نفس محافظته، فطلبت منه ونحن نتمشى بطرقات مدينة السليمانية بذلك الصباح الباكر، أن يسمح لي لنعرج على بيت أقاربي الذي كان على طريقنا من أجل إخبارهم بخروجي من السليمانية لكي يخبروا أهلي في بغداد عن تسفيري لكركوك، فوافق الرجل على الفور واتجهنا إلى بيت عمي كاك نجم الدين لكي أوصل لهم رسالتي هذه عند باب بيتهم ثم نمضي لكركوك، فاستقبلونا هناك بكل رحابة بسبب قلقهم الذي تزايد خلال اليومين الماضيين نتيجة انقطاع أخباري عنهم، وأصروا على دخولنا لبيتهم ليقدموا لنا طعام الإفطار.

بعد جلوسنا بصالة الضيوف سألتهم عن السبب الذي جعل صديقهم محمد علي رستم يتخلى عني ولا يأتي لزيارتي بعد أن طلبت ذلك من عمتي تليفونيًا عندما كنت محتجزًا بدائرة الاستخبارات، من أجل أن توصل رسالتي له من خلال الاتصال بكم لأني نسيت رقم هاتف بيتكم، ولذلك كنت مجبرًا بتكليفها بهذا الأمر، فقالوا بدهشة: لم تتصل بنا عمتك على الإطلاق بخصوص أي موضوع، فتعجبت لذلك لأنها لو اتصلت بهم فبالتأكيد لن يكون هناك من يتنصت على مكالمتها لهم كما كانت تخشى ذلك عندما اتصلت بها، وبالتالي لم يكن هناك ضرر قد يلحق بها وهي ختيارة نساء السليمانية.

بعد تناولنا السريع لطعام الإفطار غادرناهم متوجهين إلى كراج النقليات لغرض السفر إلى محافظة كركوك بعد أن طلبت منهم بإلحاح الاتصال بأهلي تليفونيًا من أجل إخبارهم أني قد تمَّ ترحيلي إلى كركوك، وما حصل مع عمتي قد حصل معهم أيضًا ولم يتصلوا بأهلي في بغداد، وأنا أعذرهم لأن سلطة الدولة كان لها

بطش شديد لا يرحم كل من كان يخفي عنها أية معلومات أمنية، وأغلب الناس كانوا يتحاشون الوقوع به خشية الأذى، باستثنائي لأني رميت نفسي به عن سابق إصرار، وذلك عندما لم أستمع لكل النصائح التي قدمت لي أن أتحاشى ذكر ما حصل معي بإيران، وأصريت على ذكره عن عمد وسابق إصرار بعد أن تعهدت بتقبل أية نتائج قد تسفر عن ذلك الإصرار..

وصلنا إلى كركوك ظهرًا وكالعادة تمَّ استلامي من قبل إدارة دائرة الانضباط العسكري هناك، وودعني ذلك الجندي الذي اصطحبني من السليمانية لكركوك وعاملني أثنائها بكل ود واحترام على طول الطريق لما كان له من أخلاق راقية، وعندها أودعني سجاني الجديد الذي كان برتبة نائب عريف وهو شخص مشاكس بشكل ملفت للنظر، بزنزانة السجن الخاصة بالتسفيرات بشكل مهين، بعد أن تجاهل متعمدًا أنني كنت برتبة نائب ضابط، وذلك أمر كان يتوجب عليه مراعاته باعتباري كنت أعلى منه بالرتبة وعدد سنين الخدمة بالجيش العراقي، وأثنائها خرجت بشكل لا إرادي عن صبري الذي عاهدت نفسي على توخيه، حتى وصلت لدرجة من الغضب كنت فيها على وشك تسديد لكمة أكسر بها أسنانه، لولا تدخل مراقب السجن الذي كان بمثل رتبتي من أجل تهدئة روعي بعد أن اعتذر مني على تصرف ذلك السجان الأرعن، وكالعادة وجدت تلك الزنزانة لا تختلف عن سابقتها بالقذارة، فاخترت لي مجلسًا بإحدى الفسحات الخالية من المساجين الذين كانوا قد افترشوا أرض الزنزانة، التي اسود لونها بسبب تراكم الأوساخ عليها، وكالعادة سألني المساجين بأول جلوسي: ما الذي فعلته؟ ما هي تهمتك؟ فترجيتهم قائلاً: دعوني وشأني من فضلكم، وانشغلوا بما أنتم فيه عسى الله أن يفرج عنا همومنا جميعًا، فتركوني لشأني ورجعت مرة أخرى لأخلد لذاتي المكتوية بنيران صلابتي وعنادي الذي لم أعرف حينها إلى أين سيوصلني..

في اليوم التالي أخرجوني من الزنزانة ووضعوا القيود بيديّ، واستلمني منهم مأموري الجديد فتصورت أنه سيأخذني لبغداد، ولكني تفاجأت أن وجهتنا كانت إلى مديرية استخبارت الفيلق الأول التي كانت مختصة بأمن المنطقة الشمالية للمحافظات، التي هي ضمن منطقة الحكم الذاتي لكوردستان العراق، كما أنها كانت تعتبر المرجعية العليا لاستخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية، وعندها انتابني القلق وخشيت من أنني قد أخضع للتحقيق عندهم بعد تلك الدسائس التي عملها ضدي ذلك المسؤول الحزبي في السليمانية، باحتمال حصوله على معلومات جديدة مدعومة بالشهود من بعض وكلائهم وأعوانهم، من أجل أن يبطل مزاعمي التي ذكرتها بإفادتي الأولية، ومنها أقوالي بخصوص اختطافي المزعوم، وعند وصولنا إليهم سلمهم المأمور الذي كان يصطحبني كتابًا رسميًا، وهذا يعني أنني قد انتقلت لأصبح ضمن مسؤوليتهم، فمكثنا ننتظر بغرفة الاستعلامات، وجلس الجندي المأمور على كرسي كان شاغر هناك، وجلست أنا على الأرض والقيود بيدي لأني لم أجد أي مكان أجلس عليه، وقد تملكني حينها القلق الذي أرهق فكري وأنا أقلب الأمور على كل أوجهها لكي أتحضر لأية مفاجأة غير متوقعة.

بعد فترة انتظار عصيبة دامت لساعة من الزمن؛ خرج علينا أحد منتسبي تلك الدائرة الاستخبارية ليسأل عني بالاسم، فأشار الجندي المأمور بيده إلي قائلاً هذا هو، من غير أن يحزر السبب وراء ذلك السؤال، فتقدم مني ذلك الشخص ليصافحني ويهنئني بسلامة الوصول للوطن، فشكرته قائلاً:

– بارك الله والعراق بك وبأمثالك.

– لقد جئتك بشكل خاص بعد أن اطلعت على أوراقك من أجل أن أرى ذلك البطل الذي انتصر لوطنه ولم يهب المصاعب، فهل تأمرني بشيء أقضيه لك؟

– بودي أن أعلم متى سأكون قادرًا للقاء أهلي؟

– أعتقد أن ذلك سيكون يسيرًا عندما تصل لدائرة الانضباط العسكري بمقرها العام ببغداد، لأنك حتمًا ستمكث هناك ليومين أو ثلاث قبل أن تسفر إلى وحدتك العسكرية..

بعدها التفت للجندي المأمور الذي لم يجد تفسير لما شاهدته عيناه وسمعته أذانه، قائلاً له:

– لماذا أجلست هذا البطل على الأرض؟

فتلعثم المأمور ولم يعرف بماذا يجيبه بعد أن أصابه الذهول من تلك المعاملة الحسنة لي، وقبل أن يغادرنا ذلك الرجل الاستخباري الشهم شدد على مأموري أن يحسنوا معاملتي ويؤمنوا تسفري لبغداد بأقرب وقت ممكن..

بعد قليل جاءنا من يسلمنا كتابًا رسميًا، فاستلمه مأموري واصطحبني لكي نعود من حيث جئنا دون أن يتجرأ ويسألني أثناء الطريق كما هي عادتهم عن موضوعي، واكتفى أن يعاملني بشكل حسن ومرضي، وعندها أطمئن بالي أن أوراقي التحقيقية كانت سليمة ولم تطرأ عليها أية مستجدات من شأنها أن تضر بي، وتلك إشارة كنت أحتاجها من أجل الثبات على أقوالي بإفادتي الأولى، باحتمال مواجهة أية أساليب تحقيقية ضاغطة تنتظرني بالتحقيقات القادمة إن حصلت، بعد أن أصبح مؤكدًا أنني سأذهب لوحدتي العسكرية وليس لأي جهة استخبارية أخرى من شأنها أن تحقق معي من جديد، وقد كنت واهمًا جدًا بهذا الاستنتاج، وذلك ما كشفته لي الأيام القادمة..

في اليوم التالي من وجودي بدائرة انضباط كركوك؛ تمَّ تسفيري بحافلة كبيرة مع حشد كبير من الجنود الذين تمَّ إلقاء القبض عليهم على أثر هروبهم من الخدمة العسكرية الإلزامية، إلى أمرية الانضباط العسكري بمقرها العام في

بغداد، وقد كان موقعها بتلك الفترة قريبًا من محل سكناي بمنطقة بغداد الجديدة، وعند وصولنا إليها أودعونا جميعًا بقاعة سجن كانت مليئة بالمساجين بمختلف أنواعهم، ولم أجد هناك حتى مكانًا صغيرًا من أجل أن أجلس فيه، لأن الجميع كان واقفًا بعد أن ضاقت بهم تلك القاعة الكبيرة، وشاءت الصدفة أن أقف إلى جانب أحد الشباب اليافعين، الذي تعرفت عليه وعلمت منه أنه قد قبض عليه لأنه لم يكن يحمل أية أوراق تثبت أنه كان دون السن القانوني الذي بموجبه يخضع للخدمة العسكرية الإلزامية، كما علمت أيضًا أنه يسكن بنفس منطقة سكناي، وأن أخاه سيأتي إليه ببطاقة الهوية الشخصية بظرف ساعة من الزمن، وعندها سيطلق سراحه في الحال بكل تأكيد، فكانت فرصة ثمينة لي وترجيته بعد أن عرفته بنفسي طالبًا منه أن يتصل هاتفيًا بأهلي بعد أن زودته برقم هاتفهم الذي بالكاد تذكرته نتيجة الهول الذي مررت به، ليخبرهم بمكاني لأنهم على أحر من الجمر بانتظار وصولي لبغداد، فلم يمانع ووعدني أنه سيفعل ذلك بأول وصوله لبيته..

وقد تمَّ فعلاً إطلاق سراحه بعد قليل، ومكثت بمكاني واقفًا وسط ذلك الجمع الحاشد من الناس الذين سرعان ما أعياهم الإرهاق والتعب وانطرحوا أرضًا بعضهم فوق بعض وكأنهم قتلى، وكنت المستيقظ الوحيد بينهم بعد أن دخلنا بفترة الليل، وأثنائها فتحت باب الزنزانة ودخل منها شخص كان يرتدي البزة العسكرية الخاصة بمنتسبي الانضباط العسكري، وأخذ يتطلع لوجوه المساجين ولم ينتبه لوجودي لأني كنت بعيدًا عنه لكبر حجم تلك القاعة، وقد عرفته على الفور لأنه كان صديقي الحميم منذ أيام الطفولة، وهو الوحيد الذي كان يعرف بأمر هروبي دونًا عن باقي أصدقائي، وقد ودعته في الليلة التي سبقت رحيلي عن بغداد، وقد تمَّ استدعائه للخدمة العسكرية الإلزامية وعمل ضمن دائرة الانضباط العسكري، وعندها تيقنت أن ذلك الفتى اليافع قد أوفى بعهده لي

واتصل بأهلي ليخبرهم بمكاني، ومن المؤكد أنهم قد استنجدوا بصديقي الحميم الذي لا يبعد بيته عن بيتنا سوى عشرات الأمتار، لعلمهم أنه الوحيد القادر أن يصلني بذلك الوقت المتأخر من الليل، وبذلك كان ذلك الصديق الحميم هو أخر من ودعني عندما غادرت، وأول من استقبلني عندما عدت لبغداد.

والحقيقة أنني استعرضت كل تلك الأفكار بجزء من الثانية، وأنا أرى صديقي يبحث عني بين الركام البشري النائم على أرضية تلك القاعة الكبيرة وهو يتفحص وجوه تلك الأجساد، من غير أن يخطر على باله أنني كنت ذلك الشخص الذي يشق طريقه بصعوبة ليدنو منه، على الرغم من معرفته الوثيقة لي، لأن شكلي كان قد تغير كليًا جراء النحافة الشديدة وتلك الشوارب الطويلة، حتى ناديته بصوت منخفض من أجل أن أراعي عدم إزعاج تلك الجموع المنهكة، فالتفت إلي ليعانقني ويخرج بي مسرعًا من قبر الأحياء الذي كنت فيه، وهناك وجدت أخي الأكبر رحمه الله بزيه العسكري بانتظاري بخارج تلك الزنزانة، وقد تعجب هو الآخر من الحال الذي كنت عليه.

وبعدها جلسنا نحن الثلاثة بالخارج لأحكي لهم على انفراد ما دار معي باستخبارات السليمانية وما قلته بإفادتي هناك، وعندها نبهني صديقي الحميم أن أمتنع عن ذكر تلك الأمور لأي شخص أصادفه من منتسبي تلك الدائرة العسكرية، من أجل أن يتسنى له من غير أن يُحرج أن يكون هو مأموري الذي سيرافقني إلى وحدتي البعيدة عند الحدود الأردنية، وذلك يعني أني سأكون قادرًا على زيارة أهلي في بيتنا، من غير أن توضع القيود الإجبارية بمعصمي طول الفترة التي ستعقب خروجنا من تلك الدائرة وحتى وصولنا لوحدتي العسكرية بصحبة مأموري الجديد الذي هو بنفس الوقت كان صديقي الحميم..

بعد ذلك الاجتماع الخاص الذي جمعني بأخي الأكبر لؤي النورسي، استسمحني صديقي الحميم أن يأخذني إلى إحدى الزنزانات المخصصة لعقوبة المخالفين من منتسبي أمرية الانضباط العسكري، وهناك أوصى من بداخلها من مساجين كان يعرفهم بأن يعاملوني بشكل حسن باعتباري ابن خالته، وقد كانت تلك الزنزانة بالقياس لما سبقها من زنازين كنت قد دخلتها في الأيام القليلة الماضية، تعتبر دار استراحة وليست مكانًا لقضاء عقوبة، ولم يتركني صديقي الحميم حتى آمن لي المأكل والمشرب والأغطية النظيفة، وذهب بعدها على أمل أن يراجعني بين الحين والآخر، متوعدًا أن يبذل قصارى جهده من أجل أن يكون هو مأموري الذي سيرافقني حتى وحدتي العسكرية..

بعد يومين تمَّ له ما وعدني به واصطحبني لنخرج من ذلك المكان، فذهبنا سويًا لبيتي وتركني عند أهلي ليذهب هو لبيته أيضًا، على أن نلتقي بعد ساعتين من الزمن أتمكن خلالها من إبلاغ أهلي بما جرى معي، ومن بعدها أغتسل وأغير ملابسي التي سكنها القمل بخلال أيام، ثم لنبدأ رحلتنا الطويلة إلى وحدتي العسكرية التي تبعد مسافة أربعمائة كيلومتر عن بغداد، وتستغرق عشرة ساعات من السفر باتجاه الغرب مرورًا بمحافظة الأنبار عندما نبدأ بقضاء الفلوجة ثم بمدينة الرمادي ثم بقضاء الرطبة ثم إلى قاعدة الوليد الجوية القريبة من الحدود الأردنية..

وقد كانت فرحتي لا توصف عند دخولي لبيتي من جديد، ولم ينغصها سوى هاجسي بالخشية لما كان ينتظرني من متاعب، لأني كنت واثقًا أن هذا الأمر لن ينتهي بهذه البساطة، لأن كل المؤشرات كانت توحي أني سأدفع الثمن غاليًا، وتمنيت حينها لو أن السلطات الأمنية المعنية بموضوعي تمهلني بعض الوقت، ولو لفترة بسيطة من الزمن أسترد من خلالها عافيتي وأستجمع بها أنفاسي،

لأبدأ بعدها أي مشوار وتحت أي سقف زمني يحددونه للتحقيق معي، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يناله..

وأثناء وجودي ببيتي استغرب أهلي ما آلت إليه أحوالي بسبب اعتقادهم أني عند ذهابي مع محمد علي رستم لتقديم إفادتي طوعيًا سينتهي الأمر عند ذلك الحد، وسأكون بعدها طليقًا لكي أذهب بنفسي وألتحق بوحدتي العسكرية بعد أن أمر بهم ببغداد، وذلك ما كانوا ينتظروه كل يوم على أمل أنني سأطرق بابهم بأية لحظة من انتظارهم لي، وعندها استغربت لما سمعته منهم وسألتهم إن كان بيت عمي في السليمانية قد اتصلوا بهم ليخبروهم بأمر ترحيلي مخفورًا من السليمانية لكركوك، فأجابوا بالنفي لأن ذلك لم يحصل ولم يكلمهم أي شخص من كل أقاربنا في السليمانية، فتعجبت للمرة الثانية بعد أن فعلتها عمتي عندما لم تتصل للإخبار عن مكاني عندما كنت بدائرة الاستخبارات في السليمانية، ولكن عندما يُعرف السبب يزول العجب، فالاثنين وعلى الرغم من قرابتي الحميمة لهم امتنعوا عن الكلام بموضوعي هاتفيًا على الرغم من تعاطفهم الشديد معي، لخشيتهم من سياسات سلطة الدولة التي كانت تطلق العنان لأجهزتها الأمنية بعد أن خولتها كامل الصلاحيات أن تقمع مواطنيها وتبحث بخفايا أمورهم الحياتية البسيطة بحثًا عن أية معلومة قد تجعلهم يمسكوا بأي خيط قد يوصلهم لكشف أية توجهات مخالفة لهم أو معترضة إياهم أو مستاءة منهم أو متأمرة عليهم، وبالتالي فإنها تتهم مطلقي تلك التوجهات بشتى التهم، ومن ثم تعاقبهم بكل قسوة بعد أن تذيقهم أمر العذابات، ليموت بعضهم وليسجن الآخرين ويطلق سراح من بقي منهم، لينقل تجربته لأهله وللمقربين منه من أجل ألا يحذو حذوه، وبالتالي كان يجب عليهم تكميم أفواههم بعد أن يطلقوا العنان لأكفهم للتصفيف على مدار السنة لسبب أو بدونه من أجل ألا تشك السلطة بوطنيتهم وولائهم لها، باعتباره كان مقياسًا مضمون النتائج.

والحقيقة أن السلطة كانت واهمة من خلال اعتمادها لذلك النهج وما حدث عند الاحتلال الأمريكي خير برهان، لأن كل أولئك الصفاقة قد صفقوا بكل حرارة مرة أخرى للحاكم المدني الأمريكي المدعو بول بريمر، ولكل من تلاه ليحكم العراق بالنيابة عن أمريكا وإيران.. تلك كانت الصورة آنذاك وهو أمر يؤسفني أن أعترف به بهذا الظرف العصيب من تاريخ العراق بسبب الاحتلال الأمريكي وما أسفر عنه، باحتمال أن يكون جزء من أولئك الذين عملوا على كتم أنفاس الناس بذلك الوقت قد قاتلوا وقاوموا الاحتلال الأمريكي وأذنابه الآن.

ولذلك أجد نفسي محرجًا بسرد تلك الوقائع التي سآتي على ذكرها تفصيليًا بمرحلة لاحقة من رحلتي هذه، ذلك لأني كنت قد تعهدت بمقدمتي أن أكون أمينًا وموضوعيًا باستعراضي لمجريات الأمور من حولي أينما كنت متواجدًا على طول رحلتي مع العذاب، ومن أجل ذلك ولكي أكون منصفًا لا بد لي أن أذكر أيضًا أن تلك الأجهزة الأمنية للسلطة لم تكن تتعرض أو تعمل على قمع أي مواطن ليس له رأي أو توجه بأي شأن سياسي مخالف لهم، باعتباره يعمل على التأييد الدائم والمطلق لحزب البعث الحاكم، من خلال إطلاق العنان لكفيه بالتصفيق والهتاف وحتى إلقاء الأشعار بمناسبة أو بدون مناسبة، ناهيك عن الأهازيج في المناسبات الوطنية، ولا يفوتني أن أذكر أن أولئك هم من أوصلوا العراق إلى الهاوية التي هي فيها الآن، لأن رأس الدولة كان يستحسن ويصدق مطلقي تلك الهتافات الجوفاء التي كانت تتعهد أن تفديه بأرواحهم ودمائهم، وأخذ يناطح الدول الاستعمارية العظمى عندما تعرض لمصالحها أثناء غزوه للكويت، معتمدًا على تأييد أولئك المنافقين الذين أبدو الحماسة بالتصفيق له، في الوقت الذي وجد المتعقلين منا أنفسهم مذهولين من تلك المغامرة غير المحسوبة العواقب، خشية منهم على مستقبل العراق، وعندما حانت الساعة التي حاصره فيها المحتلين انفضوا من حوله وأصبح مكشوفًا ووحيدًا ووقع بيد

الأمريكان، ومن ثم اغتيل على يد أذنابهم بعد مسرحية محاكمة بائسة، لتطهره من ذنوبه التي اقترفها وأخطائه التي أوقعنا فيها، ويغادرنا ليصبح بذمة التاريخ الذي سيحكم عليه بالسلب أو بالإيجاب شئنا أم أبينا.

وباعتقادي الشخصي أن التاريخ سيكتب عنه بعد مئة عام مثلاً سطرين لا أكثر، وذلك أنه قد قاوم وتصدى للغزو الأمريكي لبلاده حتى ألقي القبض عليه وأعدم على يد الحكومة العميلة التي عينوها بديلاً عنهم، من غير أن يذكر باقي التفاصيل التي عشناها وعرفناها عن طريقة حكمه للعراق لأنها ستسقط مع تقادم الزمن ليبقى فقط العنوان الرئيسي لذلك الحدث الذي انتهت به حياته كعنوان بارز له، وذلك ما قرأناه من خلال اطلاعنا على تاريخ باقي الأمم السابقة...

ورجوعًا لموضوعنا بعد أن ذهبنا بعيدًا، وغصنا بعمق بوصفنا وموقفنا لتلك المرحلة غير البعيدة من تاريخ العراق، فإنني قد انتهزت فترة تواجدي القصير في بيتي، فاستحممت وحلقت تلك الشوارب الطويلة التي جعلتني أبدو وكأنني شخص آخر لكل من كان يعرفني، وبذلك رجعت لشكلي الطبيعي، وكذلك ارتديت من الملابس الشتوية ما كان يناسب المناخ البارد، وكنا بنهاية الشهر الأول من عام ١٩٨٣، حتى جاء صديقي الذي هو مأموري الجديد لننطلق بطريقنا الطويل، وقد أصر أخي لؤي رحمه الله على مرافقتنا، فذهبنا سويًا وكنت على طول الطريق أحكي لهم ما شاهدته بإيران وعشته بقفص الأسرى العراقيين بطهران بالتحديد، وكان أخي منصتًا بشغف لكل كلمة قلتها بخصوص فترة تواجدي مع الأسرى هناك، من أجل أن يشحذ طاقاته لقتال الفرس أصحاب مشروع تصدير ثورتهم للعراق، وذلك ما توعد به لأنه حينها كان من مقاتلي صنف الدروع في القاطع الأوسط للعمليات العسكرية الذي كان يتواجد على خط جبهة القتال على الحدود، قبالة مدينة العمارة بمحافظة مسيان، وبالتالي كان

يهمه أن يعرف ماذا يحصل للجندي العراقي عدما يقع أسيرًا بيد الإيرانيين وحتى وصوله إلى قفص تسفيرات الأسرى بمعسكر دوژبان مركز الذي كنت متواجدًا فيه، هذا إن كتب لذلك الجندي الأسير النجاة ليصل طهران وهو حي يرزق..

أما صاحبي وصديقي الحميم فلم يبدُ عليه أنه كان مهتمًا لذلك الحديث، فغيرت حديثي عن إيران واستعرضت وإياه ذكرياتنا الجميلة التي عشناها سويًا على مدى شهر كامل أثناء سفرتنا السياحية إلى كل من تركيا وبلغاريا وهنكاريا بعام ١٩٧٨، عندما حصلت على إجازة سنوية أقضيها خارج العراق لغرض الراحة والاستجمام عن طريق وحدتي العسكرية، التي لم تمانع ورفعت طلبي للجهات المعنية بذلك، لأن سفر العسكريين من المتطوعين كان قد سمح به بتلك السنة لكل من يرغب بالسفر خارج العراق بهذه الغاية وقد أغلق بعدها بعامين، من غير مراعاة أن يكون صاحب الطلب بعثيًا أو مستقلاً، بعكس الدورات الفنية التي كانت تبعث إلى الدول الاشتراكية حينها، ويراعى فيها أن يكون المنتسب الفني منتظمًا بصفوف حزب البعث الحاكم كشرط أساسي لأي مرشح تتوفر فيه الشروط الفنية والمهنية التي كنت أتمتع بها، بل كنت متفوقًا بها على كل أقراني الذين بعثوا بتلك الدورات التدريبية المهنية للأجهزة الميكانيكية الحديثة، التي تعاقدت على شرائها القوة الجوية العراقية، وعليه فقد خيروني لمرات عديدة ما بين أن أنضم لحزب البعث لأكون ضمن تلك البعثات، أو أبقى مستقلاً وبالتالي سأستبعد منها حتمًا، ولأني لم أقبل على نفسي أن أباع أو أشترى كأي سلعة رخيصة فقد بقيت مستقلاً، وكنت سعيدًا بذلك ولم أشعر بالغبن والإقصاء...

بعد أن كسرنا الملل بجلوسنا من خلال تلك الأحاديث على مدى ذلك الطريق الطويل بالصحراء، وصلنا إلى مشارف قاعدة الوليد الجوية حيث تكمن وحدتي

التي كانت تدعى بالجناح الفني، فنزلنا عند بوابة استعلامات القاعدة التي تبعد مسافة خمسة كيلومترات عن تواجد مختلف وحداتها المختلفة الواجبات، وجدنا عناصر أمن القاعدة بانتظارنا من أجل وصولي الذي كانوا يتوقعونه بكل يوم، من أجل إرسالي إلى ضابط أمن القاعدة الذي كان قد شدد عليهم بتعليماته لهم بضرورة مواجهتي فور وصولي للقاعدة، ومن ذلك علمت وتأكدت أن نسخة من إفادتي التي أدليت بها في السليمانية قد وصلت إليهم بريديًا عن طريق مديرية الاستخبارات الجوية ببغداد، فذهبت لمواجهته بصحبة صديقي المأمور وعدد من أفراد أمن القاعدة، بعد أن منعوا أخي المرحوم لؤي أن يأتي معنا إلى داخل القاعدة، باعتباره شخصًا مدنيًا ولا يجوز له دخول القاعدة، وعندما أبرز لهم هويته العسكرية وافقوا على دخوله معنا.

عند وصولنا إلى مكتب ضابط استخبارات القاعدة، طلب الحديث مع أخي لؤي ليستفسر منه عن موضوعي وتلك طريقة استخبارية ذكية كانت بغرض الحصول منه على معلومة قد تفيدهم عندما تتناقض وما قلته بإفادتي، ومن ناحية أخي لؤي فإنه تحمس بالدخول لضابط الاستخبارات لاعتقاده أن أمري منوطًا بما سيقرره ذلك الضابط بحقي، وأن باستطاعته استمالة رأيه لصالحي، وقد كان واهمًا لأن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير، وذلك ما استنتجته من حديث ضابط الأمن لي عندما دخلت إليه، وقد عرفته على الفور لأنه كان أحد المهندسين الفاشلين الذي أمتهن الأمور الأمنية وتخلى عن شهادته الهندسية، وعندها قال لي باستهزاء:

– لو أن كل فرد من هذه القاعدة عاد إلينا بعد هروبه بتأليف قصة خيالية كهذه، لكنا قد خسرناهم جميعًا وتوقفنا عن العمل، فهل أنت واعي لما قلته بهذه الإفادة؟! وهل أنت فعلاً بكامل قواك العقلية لتصرح بمثل هذه الأقوال الخطيرة؟!

فلم أجبه على الفور لأنه قد فاجأني بقوله إنها قصة خيالية، مع تشكيكه بقدراتي العقلية حتى بات واضحًا أن الموضوع كان أكبر من أن يتحمله عقله، لأنه دخيل على مهنة الأمن والاستخبارات إلى درجة قادته أن يذهب باعتقاده إلى أني قد أدخلت نفسي بورطة ستجعله يخسرني كمنتسب، وتلك إشارة أني ذاهب بمشوار صعب لن أستطيع الخلاص منه وأرجع لوظيفتي مرة أخرى.. فقلت له كلامًا قاسيًا تخليت من خلاله عن الانضباط الذي يتوجب علي مراعاته بالظروف الاعتيادية للحياة العسكرية:

– أول شيء أريد قوله لك هو إنك واهم عندما تعتقد أني كنت هاربًا، ثم مع احترامي الشديد لرأيك فإن عدم تصديقك لأقوالي المدونة بإفادتي لا يعني بالضرورة أنها غير واقعية ولم تحدث فعلاً، لأنها خارج نطاق اختصاصك فهي أكبر بكثير من تلك الأمور الأمنية التي تزاولها بعملك اليومي كضابط أمن للقاعدة. (وكنت أقصد بذلك أمور المشاغبات التي تحدث بين منتسبي القاعدة، من قيل وقال وما إلى ذلك من أقاويل تافهة يرفعها له وكلاء الأمن على شكل تقارير حزبية بغرض الوشاية الكاذبة، وكان لي منها النصيب الكثير لما رفع عن لساني في السابق)، وتابعت:

– وللأمانة أقول لك إنني غير مهتم بمن سيصدق أو لا يصدق أقوالي هذه لاعتقادي أن وصولي للعراق كان نصرًا لي، لأني سأوصل الرسالة التي تحكي معاناة أسرانا العراقيين بإيران، وهذا وحده أمر يهمني كثيرًا..

فقاطعني بغباء شديد قائلاً:

– أعطني الرسالة التي تريد توصيلها لكي أطلع عليها!

وبقوله لتلك العبارة لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، وقلت له:

– إنها مدونة أمامك بإفادتي التي تعتبرها خيالية، وهي مدعومة بمستمسكات حصلت عليها، مكنتني من الرجوع للعراق.. ويبدو أن استخبارات السليمانية لم

ترفق صورة منها لمنظومة الأمن بوحدتي العسكرية، وأفترض أن مرجعيته مديرية الاستخبارات الجوية ليس لديها صورة من تلك المستمسكات أيضًا، ومن المؤكد أنها قد أرسلت لمديرية الاستخبارات العسكرية العامة في بغداد مع النسخة الأصلية من إفادتي..

فقال بخجل من أجل أن يغير وجهة حديثنا بعد أن فشل أن ينال من عزيمتي، وكأني متهم بسيط مثلت أمامه نتيجة وشاية من مغرض رخيص بداخل القاعدة:

– ولكنك تأخرت كثيرًا بالوصول إلينا، وبكل يوم تصلني برقية تلو الأخرى من مديرية الاستخبارات الجوية التي تريدك أن تمثل أمامها بأسرع وقت..

– أنت تعلم أن الأمر لم يكن بيدي لأني جئتكم مخفورًا..

– سأتحفظ عليك حتى صباح الغد وأنا مضطر لإيداعك في سجن القاعدة، وأرجو منك أن تلزم الصمت ولا تخبر أحد هناك بهذا الموضوع خلال هذه الليلة.

وبذلك بات واضحًا أنه سيحولني إلى مرجعيته الاستخبارية بصباح الغد، فقلت له:

– لك ذلك، وأنا متشوق لمناقشة هذا الموضوع مع أية جهة تحقيقية مختصة عندما أمثل أمامها..

عند هذا الحد انتهت تلك المقابلة وخرجت والرجل ينظر لي بأسى وكأني ذاهب إلى حتفي، وبالخارج لم أجد أخي المرحوم لؤي ولا صديقي الحميم، لأن أفراد الأمن كانوا قد اصطحبوهم أثناء رجوعهم لاستعلامات القاعدة، وقد علمت لاحقًا من أخي لؤي عما دار بينه وبين ذلك الضابط من حوار، فعندما دخل عليه أخي ببادئ الأمر وجد نفسه أمام كم هائل من الأسئلة عن موضوعي، وهذا خلافًا للسبب الذي دخل من أجله بغرض استمالة ذلك الضابط نحونا كما توهم،

وعندها لم يصرح له بشيء مدعيًا أنه لم يكن بصحبتي أثناء رحلتي مع العذاب، وقرر أن ينسحب ويتركه لي لأني أولى وأقدر على مناقشة تلك التفاصيل لأني عشتها وهي تخصني وحدي، فقال له بكلمة مختصرة:

– إن أخي في الخارج وتستطيع أن تسأله لأنني لم أكن معه أسيرًا بطهران..

وعليه دخلت إلى سجن القاعدة بتلك الليلة، والطريف في الأمر أنني وجدت هناك البعض من الذين كنت أعمل معهم ومنهم صديق لي يدعى حسين رشيد، وكانت علاقتي به تمتد منذ فترة سابقة بقاعدة الرشيد الجوية ببغداد، فرحبوا بي وأجلسوني وسطهم وهم متعجبين من الهزال الذي كنت عليه وهم يعرفون أني كنت رياضي مفتول العضلات، وسألوني السؤال الأزلي المعتاد بكل السجون:

– ماذا فعلت؟ وماهي تهمتك؟

– اعذروني من البوح بأي شيء وستعلموا ذلك في الوقت المناسب عندما أعود لكم بعد التحقيق الذي سأدخله غدًا ببغداد.

كان جوابي لهم غير مرضي ولم يشبع فضولهم، فألحوا علي أن أخبرهم فقط بنوع التهمة الموجهة لي وهم سيستنتجوا الباقي، فقلت:

– أقسم أنني غير متهم حتى الآن بأية تهمة..

فاحتاروا أكثر وزاد إلحاحهم علي أكثر بحكم زمالة العمل التي كانت تجمعني وإياهم.. فقلت:

– حسنًا سأذكر لكم الجهة التي قدمت منها، فهل هذا يكفي وتكفوا عني من غير أن تطالبوني بالتفاصيل؟

– نعم نعدك أننا سنكتفي..

– أنا كنت نزيل زنزانة الأسرى العراقيين في طهران، وقد تمكنت من الخروج والعودة للعراق..

ولأنهم يعرفون أني جاد بأي كلام أقوله؛ فقد أصابتهم نوبة من الذهول، لما لكلمة "كنت في إيران" من رهبة على نفوسهم، فسكتوا تلقائيًا من غير أن يطالبوني بتفاصيل كيفية عودتي للعراق، لأن الناس بتلك الفترة بسبب خشيتهم من سلطة النظام أوصلت البعض منهم إلى تمزيق الصور التي كانوا قد التقطوها أثناء سفرتهم السياحية لإيران أيام الشاه ولم يعد يتكلم عن تلك السفرة لكي لا يحتسب على الإيرانيين..

وبعد قضائي لتلك الليلة بسجن قاعدة الوليد الجوية المسماة بـــ (H3)؛ استلمني في الصباح مأموري الجديد الذي كان من أفراد أمن القاعدة، وغادرنا القاعدة متوجهين لبغداد بغرض تسليمي لمديرية الاستخبارات الجوية الكائنة بقيادة القوة الجوية بتلك الفترة، بعد أن وضعت القيود بيدي مرة أخرى، وقد وصلناها مساءً واستلمني خفر المديرية بعد أن فتشني جيدًا وكنت معصوب العينين، فسرق من جيبي بكل صلافة ولاعة السجائر التي أعطاني إياها مأموري السابق صديقي الحميم أثناء رحلتنا لوحدتي، وهذا الأمر على الرغم من تفاهته لكنه أثر بنفسي كثيرًا لأنه لم يحصل معي عندما كنت أتنقل بين السجون الإيرانية، وما كان يرافقها من تفتيش لأغراضي، والسبب الذي جعل هذا الموضوع يؤذيني نفسيًا على ذلك الشكل المؤثر هو أنه قد حصل معي من قبل أبناء بلدي بدائرة كانت مختصة بأمن مركزي للقوة الجوية العراقية وبمقر قيادتها ببغداد، في الوقت الذي ترفع فيه الأعداء عن القيام بنفس ذلك التصرف الرخيص.

ولم يقتصر الأمر على تلك المرة فقط لأنه تكرر معي لاحقًا من قبل أجهزة استخبارية كانت تعتبر نفسها أمينة على توفير الأمن لكل العراق، عندما تخاصم اثنين من عناصرها وأنا معصوب العينين على من هو الأولى بالاستحواذ على حذائي قبل دخولي لزنزانة سجنهم..

بعد تلك المهزلة دخلت إلى سجن مديرية الاستخبارات الجوية ولم أجد هناك سوى شخص واحد كان نائمًا، وخلدت بدوري لنوم عميق بسبب مشقة السفر، بعد أن توعدت ذلك العنصر الأمني الذي سرق ولاعتي أنني سأشتكيه غدًا لدى مدير الدائرة، فأجابني مستهزءًا أن الأولى بي أن أتحضر لما سينتظرني من عذاب في اليوم التالي، وعند بداية الدوام الرسمي أيقظني الحراس وقيدوني بعد أن أغمضوا عيني، ثم اقتادوني إلى إحدى الغرف التي علمت بحدسي على الفور أني بحضرة مدير الاستخبارات الجوية مع حشد من ضباطه، وطبعًا كل هؤلاء ليسوا من أصحاب الاختصاص بأمور الاستخبارات، فقال لي أحدهم وكان المدير بعينه على ما كنت أعتقد بعد أن تهامس مع البعض من أعوانه:

– هل أنت فعلاً تستطيع الكلام باللغة الإنكليزية؟

اندهشت في البداية لهذا السؤال، لكني سرعان ما استنتجت أنه قد أطلع بإفادتي على الفقرة التي ذكرت فيها محادثتي بالإنكليزية مع العقيد توكان مدير استخبارات سنندج الإيرانية، فقلت له:

– سجلي عندكم يؤشر أني كنت مترجمًا وفنيًا بنفس الوقت قبل أربعة سنوات مضت، عندما كنت أعمل مع الشركة الفرنسية التي شيدت بعض الأبنية الجاهزة بنفس مبنى هذه القيادة، وهذه الأبنية الجاهزة لا تزال موجودة ولا تبعد عنا سوى عشرات الأمتار..

– حسنًا.. ترجم لي عبارة: "أنا أرغب بالذهاب للأسواق"..

فترجمتها على نحو آخر وقلت له بالإنكليزية:

– إن حارسكم الذي استلمني بالليلة الماضية قد سرق ولاعتي وعيب عليه أن يفعل هذا.

فلم يعلق على كلامي الذي قلته له باللغة الإنكليزية باحتمال أنه لم يفهم من الإنكليزية سوى ماذا يتوجب على أحدنا قوله عندما يرغب بالذهاب للتسوق...

فتحول لسؤال آخر كان أكثر غرابة من سابقه عندما قال:

– هل لك أصدقاء من مدينة تكريت كانوا يعملون معك بالوحدات التي خدمت فيها؟

فعلمت على الفور أنه كان قد قرأ بإفادتي التي ذكرت فيها أني قد علمت من أحد الأسرى الذي كان حبيس الزنازين الانفرادية بمعسكر دوژبان مركز، أنه كان نزيل بزنزانة انفرادية كانت مجاورة لزنزانة ضابط تكريتي يدعى النقيب حسين هيلان، فأجبته بقولي:

– كلا لا يوجد لي أصدقاء من مدينة تكريت يعملون معي بوحدتي ولا بكل الأجنحة الأخرى لقاعدة الوليد الجوية التي تخلوا منهم، لكي يخبرني أن النقيب حسين هيلان قد وقع بالأسر الإيراني...

وطبعًا أنا أشرت بعبارة أن المكان الذي أعمل به كان يخلو منهم بإشارة إلى أن من يسكن بتكريت لا يتواجد بالخدمة بذلك المنفى البعيد وسط الصحراء.. وعندها نفذ صبره لأنه لا يعلم من أين يسألني ليتأكد أن أقوالي بإفادتي هي معلومات حقيقة وقد حدثت فعلاً، وتلك إشارة تدل على عدم مهنيته كرجل استخبارات، ناهيك على أنه لم يكن يملك تلك المستمسكات الإيرانية بين يديه لكي توضح له أن الموضوع حقيقي وليس مجرد ادعاء، وعليه فإنه أخذ يدفعني لكي نخرج من صلب الموضوع، ويجعلني أصرح بأمور من شأنها أن تزيد من الطين بلة، وقال:

– لنفترض أنك فعلاً كنت في إيران، فهل تصديت للشتائم التي يطلقها الفرس على رئيسنا القائد صدام حسين؟

قلت له على الفور:

– لم يكن وضعي يسمح لي بالتصدي لهم آنذاك، لأن شغلي الشاغل كان هو السعي للكيفية التي تمكنني بالرجوع لوطني العراق، وعندها سأتصدى لهم من

موقعي كمقاتل في جيشنا العراقي، وكنت حتمًا سأفعل ما تفترضه وأتصدى لهم حتى لو قيدوني بأغلظ السلاسل لو أنني كنت قد فقدت الأمل بالنجاة منهم كما كان يفعل الأسير البطل حمدي جاسم هزاع والآخرون من إخوتي الأسرى الأبطال..

فقال بخبث:

– هذا يعني أنك امتنعت عن التصدي لهم؟

– وهل كنت أنت ستتصدى لهم لو كنت بمكاني بتلك المحنة العسيرة؟!

– اخرس..

فقلت بعصبية:

– على الأقل أنا لم أكن أكيل الشتائم تجاه وطني وجيشي وكل قادته كما كان يفعل أولئك الخونة على مختلف درجاتهم الحزبية ورتبهم العسكرية ومواقعهم الأمنية التي كانوا يشغلوها قبل الأسر، والتفاصيل موجودة بإفادتي ولك أن تتطلع عليها، فلا داعي للمزايدة رجاءً..

فقال بلهجة المسؤول الواثق من نفسه بعد أن تبين عجزه على مواجهة أقوالي:

– يظهر أنك لا تعرف مع من تتكلم؟!

– أنا لا يهمني مع من أتكلم ما دمت أقول الحق الذي نذرت حياتي رخيصة في سبيله، والأولى بك أن تحرص على سمعة هذه الدائرة وتحاسب خفر المديرية الذي استلمني بالأمس وسرق ولاعتي من غير حياء أو خجل، وقد ذكرت لك ذلك باللغة الإنكليزية ولم تعلق عليه بشيء وكأنه أمر عادي، ثم كيف لي أن أعرف من أنتم وقد عصبتم عيني وقيدتم يدي بهذا الشكل المهين وأنا محسوب عليكم بانتمائي للقوة الجوية، في الوقت الذي عاملني ضباط استخبارت الفرقة الرابعة في السليمانية بكل احترام عندما أجلسوني أثناء الإدلاء بإفادتي

وسمحوا لي بعدها أن أخرج من دائرتهم وأتجول في الأسواق طليقًا ثم أعود لهم في اليوم التالي..

قلت ذلك الكلام لأني كنت أعلم بيقين أن لا هذا الرجل ولا غيره من الضباط الذين شعرت بوجودهم بتلك الغرفة وهم يتهامسون بينهم؛ قادرين على مس شعرة من رأسي، لأنهم لم يكونوا سوى الواسطة التي أمر بها لتجعلني أمثل لدى المحققين من صنف الاستخبارات لجهة كانت أعلى منهم..

بذلك انتهت تلك المقابلة السقيمة مع ضباط مديرية الاستخبارات الجوية كما توقعت، ليخرجوني بعدها ويفكوا العصبة عن عيني ويرموا بي بداخل سيارة جيب عسكرية توجهت بنا مباشرة إلى مديرية الاستخبارات العسكرية في الشعبة الرابعة التي كانت مختصة بشؤون الكورد ببنايتها الكائنة بداخل مبنى وزارة الدفاع ببغداد.

وبعد مسيرة بشوارع بغداد التي وجدتها مفعمة بالحياة؛ وصلنا لوزارة الدفاع واستلمتني الشعبة الرابعة للاستخبارات العسكرية العامة، وتم إيداعي بإحدى الزنازين بعد أن أزيلت القيود من يدي، وكالعادة عند دخولي إلى أية زنزانة جديدة مكتظة بنزلائها، فإني أبحث فيها عن مكان خالي لأجلس فيه، وبعد جلوسي سألني من كان على يميني ويساري السؤال المعهود: ماذا فعلت؟ ما هي التهمة الموجهة لك؟ فأجبت هذه المرة أنني لم أفعل شيئًا ولم توجه لي أية تهمة حتى الآن.

ولأنهم سجناء غير اعتياديين فإن جوابي هذا لم يرضهم فقال لي أحدهم:

– كيف لم تفعل شيئًا وشكلك يوحي أنك قد دخلت لعدة سجون قبل أن تأتي إلينا، أو على الأقل أنهم لم يجلبوك من بيتك مباشرة وتدخل علينا بهذه الزنزانة، أليس كذلك؟

والغريب بذلك اللقاء الذي كان بالإمكان أن يكون اعتياديًا كسابقاته لولا تواجد مراقب تلك الزنزانة (الأرشد) الذي كان إيراني الجنسية، وكان من سكان الأحواز ذات الأصول العربية، وهو مقيم بصورة دائمية بتلك الزنزانة من أجل الترجمة لمن يؤتى به للتحقيق من أولئك الأسرى الإيرانيين الموجودين في العراق، وباعتباره كان مراقبًا لتلك الزنزانة وهمزة الوصل بين السجناء والحراس في الخارج، فإنه تدخل قائلاً:

– لماذا يا أخي لا تقول لنا ما هي قضيتك؟ فقد نستطيع مساعدتك بالمشورة لكي نخفف عنك.

وبعد أن علمت أنه كان جنديًا إيرانيًا بالرغم من أصوله العربستانية، لم أستطع التكتم أكثر على موضوعي، لأني أردته أن يعلم ماذا كان الجنود الإيرانيين يفعلوا بالأسرى العراقيين لديهم وبعضهم كان عربي مثله، فقلت لهم:

– انصتوا جيدًا سأحكي لكم من أين جئت، وماذا كانت تفاصيل الحياة اليومية لذلك المكان الذي كنت فيه، ولكني أرجو ألا تضغطوا علي أن أخبركم كيف خرجت منه لأني حتى الآن لم أخضع للتحقيق وبالتالي لا أعلم إن كان بالإمكان التصريح به أم لا.

فقالوا بفضول:

– لقد شوقتنا كثيرًا فأخبرنا مباشرة ولا تتردد.

– لماذا أتردد؟ ولكني أجزم ألا أحد منكم لديه أية فكرة عن ذلك المكان باستثناء أخونا الجندي الإيراني العربستاني الذي أعتقد بأنه يعرفه أكثر مني، أنه باختصار شديد معسكر دوژبان مركز الذي تتواجد به دائرة الانضباط العسكري الإيراني بمقرها العام، وهي مختصة بإدارة شؤون الأسرى العراقيين على امتداد رقعة إيران، وكان لي الشرف بأن أكون أحد أولئك العراقيين بقفص الأسرى للتسفيرات بداخل ذلك المعسكر..

بعدها أسترسلت بذكر تلك الوقائع التي تخص الأسرى العراقيين الواحدة تلو الأخرى، ولم أستثنِ أي واقعة كنت قد شاهدتها أو سمعت بها هناك، والحقيقة فإنها كانت فرصة من أجل كسب بعض الصداقات، إضافة إلى أنني كنت متيقنًا أن كل واحد من أولئك الذين استمعوا لي سيخبر مائة شخص على الأقل، وتلك هي رسالتي بفضح تلك الأعمال الوحشية للفرس التي لم يكن أحد من العراقيين بتلك الفترة لديه أدنى فكرة بما كان يدور بإيران، وبنفس الوقت فقد كانت فرصة لي من خلال ذلك السرد لأن أتمرن على الأولوية من أين أبدأ بكلامي وبماذا أنتهي على ما سأقوله أثناء التحقيقات التي كانت تنتظرني، وبين هذا وذاك فهي أيضًا فسحة من الوقت الذي سأهرب من خلاله من ذلك الواقع المرير بتلك الزنزانة، وأنا أتطلع لتلك الجروح والكدمات التي كانت واضحة على وجوه وأجساد البعض منهم بسبب التعذيب أثناء التحقيق معهم بتلك الشعبة الاستخبارية..

في الصباح لم يرسل المحققون بطلبي كما توقعت، واستدعي البعض منهم على التوالي للتحقيق ورجعوا لنا وهم يبكوا كالأطفال من شدة التعذيب الذي تعرضوا له. حتى حل علينا المساء وتم إفساح المجال للمساجين بفرصة واحدة لهم خلال كل أربعة وعشرين ساعة، من خلال الخروج بصف واحد لقضاء حاجتهم، فرأيت تصرفًا عجيبًا لم يسبق لي أن اطلعت أو سمعت بمثله، فكان أحد الحراس بعد خروج المساجين يأخذ بالعد من رقم واحد وحتى رقم عشرة، وبعدها يقف عند باب الزنزانة المفتوحة ليضرب بعصاه الغليظة على رأس كل سجين يرجع للزنزانة بعد إتمامه لذلك العد، باعتباره قد تأخر عن الوقت المخصص للخروج إلى دورة المياه ثم الرجوع للزنزانة، وجدت أن ذلك التصرف فيه إهانة ينبغي علي تجنبها من خلال امتناعي جزئيًا عن وجبة الطعام الوحيدة التي تقدم لنا مرة كل يوم، وكانت تقتصر على ما يعادل حجم قدح من الأرز لكل سجين،

وبأكثر الأحيان يكون الطعام عبارة عن شوربة لا تصلح أن تأكلها الحيوانات، وكان ذلك الأسير الإيراني مستثنى من حصته بذلك النوع من الطعام لأنه يزود بثلاث وجبات من الطعام الجيد الذي يزوده به مطعم الضباط بتلك الشعبة الاستخبارية، وهذا يعني أنني لن أكون مضطرًا لخروجي من الزنزانة، وبالتالي لن أتعرض لتلك الإهانة المبرمجة بغاية الانتقاص من معنويات المساجين هناك.

وبقيت بذلك السجن حتى مضى على وجودي فيه حدود العشرة أيام قاسية جدًا، وفي كل يوم كنت أشاهد مائة حدث مؤلم على النفس ولا أعلم متى سيصلني الدور بالتحقيق، وقد أصبح مؤكدًا أن التعذيب الجسدي سيتخلله أسوة بكل من كان هناك من باقي المساجين، وعلى الرغم من ذلك النظام اليومي الذي كان متشددًا وصارمًا إلى تلك الدرجة التي لا تطاق؛ لكني تحملته لأنه جاء نتيجة عنادي وإصراري على الوفاء بعهدي الذي قطعته على نفسي بالعودة للوطن والإخبار عن كل ما عشته بإيران، وهو أمر لم أمنِ نفسي أنني سألقى معاملة حسنة عند وصولي، وكان كل همي بتلك الأيام العصيبة محصورًا أن أسلم من أية إهانة مقصودة أو غير مقصودة قد تأتيني من سجين أرعن أو سجان لئيم بتلك الزنزانة، لأنها حتمًا ستكون من أيادي عراقية وذلك ما قد يجعلني بلحظة من التذمر أندم على ما أقدمت عليه عندما سلمت نفسي طوعيًا.

وخلال تلك الفترة حدثت أمامي ثلاثة حوادث منفصلة، أقساها على نفسي كانت الأولى منها، فعندما حان وقت خروج المساجين للمرافق الصحية بتوقيتهم المعتاد بعصر كل يوم، صادف أن تأخر أحد المساجين ورجع للزنزانة بفارق قليل على من سبقه من باقي المساجين، وعلى أثرها انتظره الحارس عند باب السجن ولدى عودته رفسه الحارس بركلة قوية من قدمه سددها لقلبه مباشرة، فسقط المسكين أرضًا من غير حراك وكان شابًا بريعان صباه، وعندها لم يهتم ذلك الحارس المجرم ونادى على المساجين لكي يسحبوه لداخل الزنزانة، ثم

أغلق الباب علينا وكأن شيئًا لم يحدث، فالتف حوله جميع المساجين من أجل إسعافه ومنهم ذلك الأسير الإيراني، ولكن دون جدوى لأنه كان قد فارق الحياة، وعندها نادى ذلك الإيراني على الحارس من أجل إخباره بنتيجة ما حصل، وكان هو الوحيد الذي مسموحًا له بأن يطرق الباب من الداخل، ففتح الحارس الباب غير مبالي لنتيجة فعلته الجبانة، وقال ارموه خارجًا، فأخرجه المساجين وبقي معه ذلك الجندي الإيراني الذي وافانا بعدها بتفاصيل ما حدث بالخارج، وبدورنا مكثنا خلف ذلك الباب من أجل أن نعرف كيف سيتصرف ذلك الحارس بهذا الشأن، فعلمنا أنهم قد أرسلوا بطلب الإسعاف العسكري، وبعد أن حضر الطبيب الذي أكد وفاته سمعنا رئيس الحراس يقول استدلوا من السجل على عنوانه وأرسلوه لأهله.

وذلك ما كان شائعًا بتلك الأيام عندما يستلم بعض الناس أبًا أو ابنًا أو أخًا قبض عليه للتحقيق ثم يرجع لهم جثة هامدة وقد كتب على جثمانه عبارة (خائن).. وإضافة لهذا يجبر أهله بالتوقيع على تعهد خطي ألا يقيموا له مجلسًا للفاتحة من أجل تقبل العزاء لفقيدهم، وقد علمت من ذلك الجندي الإيراني أن لذلك الشاب المتوفي أخًا كان معه في الأيام الأولى لدخولهم السجن بنفس زنزانتنا، وقد فُصل عنه ووضعوه بالزنزانة المجاورة بعد أن علموا أنهم أخوة، وطبعًا هذا الأخ بالزنزانة المجاورة لم يكن يعلم بموت شقيقه الذي توفي على بُعد خطوات منه، وإذا كان قد علم بوقت لاحق فلكم أن تتصوروا مدى حزنه وعذابه يومها..

أما الحادثة الثانية فقد كانت لرجل إيراني مدني كان قد لجأ للعراق، وقد ذكرتني تلك الحادثة بنفسي عندما كنت بسجون إيران، وإن كان ما تعرض له هو أقسى بكثير من ذلك الذي حصل معي بإيران وإن اختلفت الأسباب، ومفاد ذلك الحدث هو دخول رجل إيراني من القومية الفارسية بالملابس المدنية علينا بزنزانتنا،

ولم يمكث بيننا سوى ساعة من الزمن حتى نودي عليه للتحقيق، فذهب بصحبة ذلك الجندي العربستاني من أجل ترجمة أقواله، وبتلك الساعة التي قضاها بيننا علمنا موضوعه بالكامل، وملخصه أن ذلك الرجل الفارسي كان قد ضاقت به الحياة عندما كان بإيران وقرر أن يلجأ للعراق بعد أن سمع أن الحكومة العراقية ترعى الإيرانيين من مجاهدي خلق، وتصور أن بإمكانه الانضمام إليهم من خلال مجيئه للعراق، فسافر أول الأمر للكويت، ومن هناك توجه لنقطة التفتيش العراقية على الحدود مع الكويت وسلم نفسه إلى المسؤولين عند السيطرة الأولى لنقطة الحدود بصفوان، فأرسلوه على الفور إلى الاستخبارات العسكرية العامة ببغداد بعد أن اتهموه أنه كان يحاول التسلل من ذلك المنفذ الحدودي، وهو أمر لا يُصدق لما لذلك المنفذ من سيطرات تفتيش متعاقبة ومتشددة بنفس الوقت ولا يمكن تجاوزها كلها إلا من كان يحمل جوازًا للسفر نافذ المفعول..

وعند عودته من التحقيق بعد ساعتين من الزمن رجع محمولاً لأنه لم يعد يقوى على المشي برجليه التي تورمت، وكذلك يديه بعد أن تمزقت كل ثيابه وكأنه قد حبس مع مجموعة من الوحوش الكاسرة بقفص واحد، أو أنه قد تعرض للضرب من قبل جوقة لقطاعي الطرق، لأنهم اتهموه أنه قد اتجه للعراق بنية معادية، ويبدو أن محققيه قد أرادوا من خلال تعذيبه بتلك الطريقة الهمجية أن يتعرفوا على ماذا كانت نيته وما هي تفاصيلها، وعلى الرغم من ذلك التعذيب القاسي فإنهم لم يحصلوا منه على اعتراف يتطابق وما اتهموه به، لأنه ببساطة شديدة لم يكن لديه شيئًا آخر يقوله لهم غير الحقيقة، منوهًا إلى أن ذلك الأسلوب البشع الذي عذبوه به، هو للأسف أسلوب لم يمارسه المحققين الإيرانين معي عندما كنت بين أيديهم متهم بالتجسس لصالح العراق، ذلك لأن الإيرانيين يتصرفوا بدهاء من أجل الكسب المتواصل لعملاء جدد،

مستفيدين من الصيت الذائع بقسوة حكامنا علينا، وبالتالي فلا أحد من العراقيين الذين وقعوا بأيديهم سيرجع للعراق ويسلم نفسه بعد أن يطلقوا سراحه كما فعلت أنا وهي حالة كانت نادرة الحدوث، لأنه بتلك الأثناء سيضطر أن يسلك دروب العمالة ليخدم بني فارس، هذا لأنه لم يذق منهم طعم القسوة المفرطة من خلال التعذيب الجسدي الذي كان مقتصرًا فقط على الأسرى العراقيين حصرًا باستثناء التوابين منهم، ولهذا فإن سياسة الدهاء الفارسي كانت سياسة ناجحة وهو أسلوب غير معمول به من قبل مسؤولينا العراقيين الذين يمارسوا الأرهاب ضد مواطنيهم لاعتقادهم واهمين أن ذلك الأسلوب الدموي سيؤدي بهم ألا يعاودوا الكرة مرة أخرى بما أقدموا عليه من مخالفات كانت بأغلبها بريئة الطابع.. قضى ذلك الشاب الإيراني تلك الليلة بيننا وهو يئن من آلامه ويبكي جروحه، وأخرجوه بصباح اليوم التالي ولم يرجعوه إلينا بعدها..

أما ثالث حادثة فكانت لشخص كان يجلس بجواري بتلك الزنزانة، وكان متهمًا أنه قد تفوه بعبارات شتم بها حزب البعث أثناء مشاجرته مع أحد أبناء محلته – وكان مسؤول بحزب البعث بدرجة رفيق– من أجل قضية عائلية خاصة تتعلق بعرضه وشرفه، والنتيجة كانت تأديبه على نفس الطريقة التي عذبوا بها ذلك الشاب الإيراني، باستثناء أنهم قد أبقوا عليه محبوسًا حتى إشعار آخر..

تلك كانت أبرز الأحداث التي اطلعت عليها بتلك الفترة القصيرة من وجودي بتلك الزنزانة، حتى جاء دوري لأمثل للتحقيق، وعندها علق أحد المساجين الذي لم أتقرب له، وكان من أولئك الذين قد تبثت عليه التهمة بانتسابه لحزب الدعوة الإسلامية، الذي كانت مقراته بإيران تشارك بالعلن بالجهد العسكري الإيراني ضد القوات العراقية المرابضة على الحدود من جهة جنوب العراق في منطقة الأهوار تحديدًا، فقال لي حينها أثناء خروجي للتحقيق:

– وأخيرًا ستذهب لتتلقى نتيجة سوء أعمالك.

وسوء الأعمال بنظر ذلك الدعوجي هو هروبي من إيران وعدم خيانة العراق. فذهبت متوكلاً على الله الذي كان قد نجاني بأول الأمر، وقد عقدت العزم ألا أجادل أثناء التحقيق كما فعلت بوحدتي العسكرية وفي مديرية الاستخبارات الجوية، وسأكتفي بالإجابة فقط على ما أسأل عنه، متوخيًا الحرص أن لا أجر إلى مواضيع ثانوية، لأقتصر بكلامي بالحديث عن موضوعي فقط من غير التشكي لما كنت عليه من حال سيء، والحقيقة فأنا بطبعي لا أضمن لساني إذا ما ركبني التعصب وبالتالي سأنفعل وأخسر كل حقوقي، وهذا أمر لا سيطرة لي عليه، لأنه خارج نطاق تحكمي بإرادتي متى يجب أن أهدأ ومتى يجب أن أتعصب، وهذا هو عيبي الوحيد الذي لم أتمكن أن أقومه على مدى العمر كله حتى أصبح الصفة البارزة لي، هذا لأني أتصرف على سجيتي ولا أجيد المراوغة، خصوصًا أثناء ندوات الحوار السياسي عندما يستفزني أحدهم، ولا يعيبني عندما أقر بهذا لأني أمتلك شجاعة الاعتراف به، وليس فينا من هو كامل وخالي من العيوب..

وكعادتهم عصبوا عيوني قبل الدخول لغرفة التحقيق بعد أن أوثقوا يداي برباط محكم من خلف ظهري، وأدخلوني إلى غرفة التحقيق وقد استنفرت كل حواسي، فبادر المحقق كلامه بصوته الأجش قائلاً لي:

– احكِ لنا موضوعك من البداية وحتى النهاية.

بدأت بالسرد منذ حادثة اختطافي المزعوم وقد مررت عليها سريعًا من غير أن أجعل المحقق ينتبه لذلك، إلى أن وصلت بالسرد لتفاصيل اعتقالي بمريوان، مرورًا بكل ما حدث لي بإيران وحتى إطلاق سراحي في الرضائية ثم خروجي من إيران، وقد تمهلت حينها بكلامي لما كان لتلك التفاصيل من أهمية، لأعاود

مرة أخرى توخي السرعة بالسرد أثناء حديثي عن كيفية وصولي إلى مديرية استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية، من غير أن أشدد على أن محمد علي رستم كان برفقتي حينها، لخشيتي أنهم قد يسألوه عني ويكشف لهم زيف بداية أقوالي بما يخص موضوع اختطافي الذي تدبرنا تلفيقه سويًا، وعند تلك النقطة كنت قد أكملت إعادتي لإفادتي الأولى، وتوقفت عن الكلام بانتظار أي سؤال قد يسأله المحقق، الذي بدوره لم يقاطع كلامي على مدى ما يقارب الثلاث ساعات من السرد المتواصل.. وبعد دقيقتين من الصمت قال لي المحقق:

– وماذا بعدها؟

فقلت متبسمًا:

– الباقي أنتم تعرفونه..

– أنت هنا منذ عشرة أيام فأين كنت قبلها؟

ففهمت معنى سؤاله الأول وقلت:

– كنت أحسبكم تعلمون؟! لقد كنت بدوائر الانضباط العسكري التي تولت مهمة تسفيري مخفورًا من السليمانية، مرورًا بكركوك، ثم لبغداد، ثم لوحدتي العسكرية على الحدود الأردنية، ثم رجوعًا إلى الاستخبارات الجوية ببغداد، وهي التي حولتني إليكم..

عندها تحدث المحقق همسًا مع آخرين لم أشعر بوجودهم أثناء الإدلاء بإفادتي لأنهم لم يتكلموا طيلة تلك الفترة، وقد تلقفت جملة من حديثهم الخافت جدًا الذي بالكاد كان يسمع، وفهمت منه أنهم كانوا مستغربين من تصرف الاستخبارات في السليمانية وكركوك عندما أرسلوني لوحدتي العسكرية مخفورًا عن طريق الانضباط العسكري، وهذا معناه أنهم قد خرجوا عن السياق المعهود بعملهم الاستخباري الذي كان يستوجب منهم أن يرسلوني بشكل مباشر لهذه الدائرة كما فعلت مديرية الاستخبارات الجوية.. فعاود المحقق يسألني:

– هل صادف أن التقيت بأي شخص تعرفه خلال فترة تسفيرك إلى وحدتك؟!

عندها عرفت لماذا كانوا مستائين من تسفيري عن طريق الانضباط العسكري، السبب واضح، وهو نيتهم بتغييبي عندهم لأطول فترة ممكنة ما دمت لم أرَ أحدًا أعرفه ويعرفني، وبالتالي يخبر أهلي عني وأنا الغائب عنهم لسبعة شهور تقريبًا.. فأجبته بالقول:

– نعم لقد التقيت بأخي الأكبر وباقي أهلي الذين زاروني أثناء تواجدي بالمقر العام للانضباط العسكري ببغداد، وهو كما تعلمون أمر متاح لكل شخص موقوف هناك، وقد سافر معي أخي أثناء الطريق لوحدتي وهناك واجه ضابط استخبارات القاعدة، ثم تركني ورجع إلى بغداد من أجل أن يلتحق بوحدته المقاتلة بقاطع العمارة وهو من منتسبي صنف الدروع.

فقال ساخرًا:

– إذا كان أخوك مقاتلاً فلماذا أنت لم تقاتل مثله؟

وهذا معناه لماذا أنت بطريق الخيانة.

فقلت بأدب من أجل ألا أستفزه وكأني لم أفهم مقصده:

– كل واحد منا يقاتل من خلال الفرصة التي أتيحت له، فهو يقتال الأعداء من دبابته ضمن تشكيل وحدته المدرعة، وأنا قاتلت نفس العدو بالكلمة الصادقة ومن خلال إيماني بوطني، عندما كنت بين أيديهم وحيدًا بداخل عمق أراضيهم..

وعندها لم يعقب المحقق على كلامي الذي قلته له وطلب من أحد الأشخاص بنفس الغرفة ألا يدون الكلام الذي قلناه بخارج إفادتي، وبعدها قال:

– نكتفي اليوم بهذا القدر.

وعندما جاء الحراس ليصطحبوني للخارج وأنا مغمض العينين قال لهم:

– على مهلكم معه.

من ذلك كله استنتجت أن ذلك المحققق قد تقبل ما ذكرته بإفادتي، وقد سجلت بحدسي إنه لم يكن وحده بالغرفة، فهناك من كان يستمع ولا يتكلم، إضافة لشخص كان قريبًا مني يوجه الضوء على وجهي، وبالتأكيد كان مستعدًا لتعذيبي عندما يستلم الإشارة بذلك، كما أدركت مدى حجم المساعدة التي قدمها لي محمد علي رستم باستمالة ود ضباط الاستخبارات في السليمانية إلى جانبي لأنهم أتاحوا لي الفرصة أن ألتقي بأهلي قبل الخضوع للتحقيق الحقيقي ببغداد، باحتمال إخفائي بدهاليز سجونهم عندما يتوصلوا لمرحلة تستوجب اتخاذ القرار بإطلاق سراحي، لأنهم لم يجدوا الشجاعة بأنفسهم بإطلاق سراحي، باعتباري كنت قادم من إيران والحرب لا زالت دائرة برحاها..

بعد ذلك التحقيق رجعت إلى زنزانتي، ودهش كل من كان فيها لأني رجعت لهم وأنا أمشي على قدمي ولم يلحق بي أي أذى، بالرغم من أن قضيتي كانت تعتبر كبيرة جدًا إذا ما قيست بباقي التهم والدعاوي العادية التي وصمت بباقي السجناء، وقد صارحوني القول إنني عندما ذهبت للتحقيق فإنهم اعتقدوا أني هالك لا محالة..

في مساء اليوم التالي نادى الحراس باسمي لكي أتحضر للخروج، فظن الجميع أنه سيطلق سراحي، باستثنائي لأني سجلت بذاكرتي أخر مقولة تفوه بها المحقق: "تكتفي اليوم بهذا القدر". وذلك يعني أنه ستكون لهم جولات تحقيقية قادمة معي، فخرجت من الزنزانة، وكبلني الحراس ثم وضعوني بحوض سيارة بيك أب، كان حوضها الخلفي على شكل غرفة حديدية محكمة وصغيرة ومن غير منفذ، ومضوا بي بعد أن وضعوا العصبة على عيني من غير أن أتجرأ على سؤالهم، أو هم قالوا إلى أين نحن ذاهبون، ولكني من خلال تعقب الطريق بعقلي، علمت أننا ماضون باتجاه حي الأعظمية، ثم شعرت بعبورنا لجسر الأئمة

وبعده مباشرة انعطفنا لندخل مكان توقفنا عند استعلاماته، فتيقنت أننا في الشعبة الخامسة لمديرية الاستخبارات العسكرية العامة بالكاظمية، وما أدراكم ما هي الشعبة الخامسة التي كان صيتها قد ذاع بين العراقيين كأكبر جهاز قمعي، وهناك استلمني حراسها الخفر بعد أن أنزلوني بشكل مهين ومرعب من تلك العلبة الحديدية المغلقة لسيارة البيك أب، التي عادة ما كان يطلق عليها بين المساجين سيارة توزيع الشكولاتة على المحلات التجارية، وأخذ اثنين منهم يدوران بي جرًا وأنا معصوب العيون ومكبل اليدين بممرات ذلك المكان الموحش وهما يتجادلان على من هو فيهم الأحق بالاستحواذ على حذائي، وقد حُسم الأمر عندما سألوني عن قياس قدمي الذي كان يناسب مقاس قدم أحدهم.

ثم سحبوني ووقفنا بباب إحدى الزنازين، وبعد أن فتحوا بابها رفعوا العصبة السوداء عن عيني، وفكوا القيد من يدي ثم أمروني أن أخلع لهم حذائي، لأدخل حافيًا إلى تلك الزنزانة، وقد شددوا علي ألا أرفع رأسي كي لا أرى ملامحهم، فهممت بالدخول إلى تلك الزنزانة التي كان بابها مفتوح للخارج، فرأيت حشدًا متراصًا من الناس واقفين بتلك المساحة التي تبلغ ثلاثة أمتار مربعة، ورؤوسهم التي بالكاد كانت ترى كانت مطأطأة إلى الأرض، ولم يبقَ في الزنزانة مجالاً شاغرًا لكي أدخل وأقف عليه، فدفعهم الحراس بشدة إلى الداخل وكأنهم قطع من الخرق البالية ولسنا من البشر، وأثنائها حصل بعض المجال عند عتبة باب الزنزانة، فدفعوني لأقف عليه ثم أغلقوا الباب علينا وانصرفوا، ثم تمددت تلك الكتلة البشرية لتأخذ وضعها الطبيعي بعد أن كبسها الحراس، وكنا بتلك الحالة أشبه ما نكون بقطع من سمك الساردين المضغوط بداخل علبة صغيرة، وعندها وجدت نفسي ملتصقًا بالباب من خلفي وذلك التكدس البشري المضغوط من أمامي وإلى جوانبي بحالة من الصمت المطبق؛ شعرت بضيق شديد بنفسي وتنفسي وأنا ملتحم بذلك الجمع البشري، الذي صعب علي حساب

عددهم بسبب التصاق بعضهم ببعض بغياب أية نافذة تأتينا بالهواء الذي نحتاجه للتنفس عدا سحابة هواء صغيرة كانت بأعلى جدار الزنزانة المطل على الخارج، وقد اندهشت أن لا أحد من المساجين قد سألني حتى لو كان همسًا بأذني ذلك السؤال المعهود: ماذا فعلت؟ ما هي تهمتك؟ هذا لأنهم كانوا بحالة مقاومة لأجواء الاحتضار التي كانت مخيمة على ذلك المكان إضافة إلى كونهم ممنوعين عن الكلام بينهم، ومن يطرق باب الزنزانة لأي سبب كان كحدوث حالة طارئة مثلاً كي يأتينا الحراس الذين هم متواجدين بصورة دائمة على مدار الساعة خلف أبواب تلك الزنزانات المتراصة أحدها بجانب الأخرى، بذلك الممر الذي سحبني الحراس به قبل أن يدخلوني لتلك الزنزانة، لكي يتخذوا الإجراء اللازم، لكنهم على العكس سيضربوننا بالعصي على رؤوسنا.

ولو قارنت ذلك المكان بالموت لكان الموت أرحم منه بكثير، وعندها تبادر لذهني أني هالك لا محالة إذا ما بقيت بذلك المكان، الذي كان المساجين يتناوبوا على الاستلقاء أرضًا بينما يفسح الآخرين المجال لهم من خلال فتح أرجلهم لساعة من الزمن لكل من يأتيه الدور، بعد أن تبين لي لاحقًا أن عددهم كان يناهز ٢٠ سجينًا، ولا مجال لتخطي ذلك الدور باستثناء فقدان أحد المساجين لوعيه من غير أن يستطيع أحد منهم مد يد المساعدة له، لعدم إمكانية الانحناء إلى الأسفل، لأنهم ملتصقين بعضهم ببعض، حتى تراءى لي أن تعبير كلمة ازدحام التي عادة ما تطلق على الاختناقات المرورية والتواجد الكثيف للناس أثناء التسوق بأيام العطل والمناسبات؛ هي كلمة بغير محلها بالقياس إلى الازدحام الذي كانت لي وقفة معه بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى متجسد بوقوفي وأنا حافي القدمين، حتى وصلت لقناعة لو أن قدماي قد عجزت عن حملي فإنني سوف لن أترنح وأسقط لأنني كنت ممسوكًا من كل الاتجاهات.

بقيت على تلك الحالة حتى مساء اليوم التالي، عندما فتح الباب ورمى الحراس فوق رؤوسنا وجبة الغذاء الوحيدة لذلك اليوم وكانت صمونة من الفرن العسكري لكل واحد منا، وبتلك الدقائق المعدودة تسنى لي أن أتحرك من مكاني قليلاً بعد أن تسمرت فيه على مدى الأربع والعشرين ساعة الماضية، وبعدها حان دوري لكي أستريح قليلاً وأستلقي تحت أرجل ذلك التكدس البشري، وذلك يستوجب عليهم فتح أرجلهم عن بعضها قليلاً لكي لا يدعسوا على رأس من هو مستلقي بينها وتلك معاناة إضافية أخرى لكل من يقف بوضع كهذا لأنه سيبذل جهده على أن يوازن وقوفه وهو يعاني من آلام رجليه التي أعياها التعب والإرهاق. وعندها تنازلت عن ذلك الحق لمن كان يتبعني في الدور من أجل ألا أخسر مكاني الذي وفر لي مسندًا لظهري على باب الزنزانة، وبالتالي سيتغير مكاني وسأضطر بعدها بفسح المجال لكل من يستلقي بين أرجلي، فأثرت أن لا أستلقي بين أرجلهم ولا يستلقي أحد منهم بين أرجلي، لأني لم أصل لدرجة فقدان الأمل ولا للحظة واحدة بأن الله عز وجل سوف يتخلى عني ولن ينجيني بهذه المرة، وحاشى لله أن يخلف وعده من خلال نصرة الصادقين الأوفياء، وعليه فإنني لم أتوقف عن ترديدي سرًا مع نفسي خلال تلك الفترة القاسية، عبارة: الله موجود. الله موجود. الله موجود.

ولأن النفس البشرية هي كما يقال أمارة بالسوء؛ فقد سولت لي نفسي بجزء من الثانية أن أقارن بين حالي البائس بسجني هذا وأنا بوطني وبين سجني الذي قضيته في إيران، فأثرت أن أشوى بنار أهلي على أن أحظى بأي معاملة أفضل من التي أنا فيها، عندما كنت قابعًا بسجون بإيران، وبنظرة تفحصت فيها عيون أغلب من كانوا حولي، ترآى لي – والله أعلم – أنهم قد كفروا بالعراق وطنًا وبالعراقيين شعبًا وبكل المقدسات الوطنية، وعندها تملكتني الرغبة أن أسال نفسي إن كانت قد ندمت أو لازالت متمسكة بصواب قرارها بالعودة

للوطن، فجاءني الرد من نفسي بدمعة ساخنة سقطت من عيوني المكحلة بسخام جدران تلك الزنزانة الكافرة، وسمعت هاتفًا من داخل ضميري يقول لي: وهل للعاشق من حيلة سوى أن يلبي دعوة المعشوق؟ والمعشوق هنا هو العراق الذي هو دائمًا فاتحًا أذرعه لكل أبنائه وهو ليس ملكًا صرف لأي حاكم يحكمه لأنه أبًا لكل العراقيين حكامًا ومحكومين..

عندها اقشعر بدني لأني شعرت أنني كنت بحضرة العراق باعتباري كنت ولا زلت عاشقًا له ولكل الخيرين من أبناءه البررة، مهما كانت قومياتهم أو أديانهم، وأن الذي كنت فيه هو لا يعدو سوى ضريبة أدفعها لمن كان يحول بيني وبينه، ولكن بالصبر ستزول كل تلك العقبات والله مع الصابرين. وعند ذلك شكرت ربي عندما هداني إلى السبيل الذي جعلني أعمل بنصيحة من طلب مني أن أتكتم على موضوع انضمامي الطوعي لقوات البيشمركة لأدعي أنني كنت مختطف بأول الأمر ثم التحقت بهم لاحقًا من أجل تخليص نفسي، لأني لو لم أعمل بتلك النصيحة أو كنت قد ذهبت لتسليم نفسي من غير أن أمر ببيت عمي كاك نجم الدين رحمه الله وطيب ثراه، فالله وحده كان سيعلم بمصيري حينها، أو على الأقل عندها لن أستطيع التفوه بكلمة واحدة أعبر من خلالها بكل صدق عن ولائي للوطن أثناء المواجهات التي تحصل من قبل المزايدين المنافقين الذين لا هم لهم سوى تسقيط من هو سواهم.

واستمر ذلك الحال وبقيت صامدًا بالإكراه ليومين آخرين من غير أن يغمض لي جفن خلالها على مدى وقوفي لتلك الأيام الثلاثة، في الوقت الذي كان أكثر السجناء من حولي يناموا وهم وقوفًا من غير أن يهوى أحدهم إلى الأرض بفعل الضغوط التي على جسده من كل جانب، وكأنها بمثابة كماشة أو يد جبارة تمسك به، وقد تمنيت حينها لو أن كل عناصر الشعبة الخامسة للاستخبارات

العسكرية العامة يجتمعوا علي كلهم ليذيقوني مر العذاب ولكن بشرط أن يصاحب ذلك التعذيب طلبهم مني أن أشتم العراق، لأهتف بأعلى صوتي يحيا العراق، فيزدادوا بضربي ثم يطلبوا مني أن أندم على قراري بالرجوع للعراق، فأجيبهم فداك روحي يا عراق، ثم يزدادوا بإيذائي أكثر ليطلبوا مني أن أذكر إيران بخير، فأشتم إيران وكل الفرس الذين عاشوا عليها على مدى التاريخ..

لقد كنت أعلم علم اليقين أن تركي المتعمد بتلك الزنزانة على ذلك الحال المرثي؛ كان من أجل كسر معنوياتي قبل أن أمثل لتحقيق ثاني، ولكني لم أنكسر وكنت أمني نفسي بالفرج القريب بعون من الله، حتى نودي علي بمساء اليوم الرابع كما أتذكر لأخرج للتحقيق، وكنت قد علمت من بعض السجناء القريبين مني عندما أخبروني همسًا أن من يغادر تلك الزنزانة إلى التحقيق فإنه سيلقى واحدة من ثلاثة، الأولى تثبيت التهمة عليه زورًا أو عن حق، والثانية تبرئة ساحته، وبكلا الحالتين فإنه لن يرجع لهذه الزنزانة بانتظار تحقيق آخر، لأنه سيحول إلى مكان آخر من أجل انتظار دوره بما سيُقرر بحقه من نتيجة، أما الثالثة فإنه يموت خلال التحقيق، بسبب ما يرافقه من عذاب قاسي وشديد.. وفي كل الأحوال فإن من يخرج من تلك الزنزانة لن يرجع إليها، باستثناء بعض الحالات التي تستوجب تحقيقًا آخر..

خرجت للتحقيق متوكلاً على الله وقد وجدت أن ذلك التوقيت كأنه رحمة قد حلت علي، لأني من خلالها تمكنت أن أمشي على أرجلي من جديد بالرغم من قصر المسافة بين الزنزانة وغرفة المحقق، بعد أن أوشكت أن أفقد إحساسي بهما نتيجة الألم في بادئ الأمر، ثم تحول للخدر، حتى أوشكت على أن أشعر بعدم وجودها بفعل التدافع الذي جعلني أبدو وكأني كنت معلقًا في الهواء. على أية حال أدخلوني إلى غرفة التحقيق بعد أن عصبوا عيني وكبلوني من يداي إلى

الخلف أثناء خروجي من الزنزانة، وحينها بدت علي علامات التعب والإرهاق بشكل واضح من خلال طريقة مشيتي على الأقل، وحينها كنت قد قررت أن أغير استراتيجيتي خلال التحقيق على غير الطريقة التي اتبعتها خلال المرة السابقة، حينما تجنبت وقتها الخوض بأي أمور جانبية من التي لم أدونها بإفادتي الأصلية، لأدخلهم هذه المرة بأمور هي أكبر من حجم كل من سيحقق معي، على طريقة المثل البغدادي الحكوك يرادلها حلوك، وهذا معناه أن الحقوق تنتزع من خلال أفواه تنطق ببلاغة الطرح، وعلى أية حال فلم يعد لدي شيئًا أخسره، لأني لم أعد أخشى المطر بعد أن أصابني البلل، وبالنتيجة فإني سأنال واحدة من تلك الثلاث احتمالات التي همس بها أحد السجناء بأذني، لكي لا أرجع إلى نفس مكاني وأقف فيه حتى أجل غير مسمى، بانتظار تحقيق ثالث لا أعلم متى سيكون.

وعندها خاطبني المحقق بنفس ذلك الصوت الجهوري الخالي من الرحمة، وهذا يؤكد أن المحقق لم يتغير، وهو نفسه الذي حقق معي بالمرة السابقة، ولكنه هو الذي توهم واعتقد أنني قد أتغير لأصبح منكسر الجناح، فقال لي بلهجة هجومية:

– قل لي الحقيقة وإلا سلخت جلدك عن جسدك.

تمهلت للحظة وأجبته بعدها ساخرًا:

– لم أكن أعلم بأنكم على هذه الدرجة من الاقتدار لكي تصلوا إلى هذه المواقع الأمنية العليا في الدولة العراقية بعد أن اعتقدت أني قد تخلصت منكم إلى الأبد.

فقال مستغربًا:

– من هم هؤلاء الذين تعتقد أنك قد تخلصت منهم للأبد؟!

فقلت بثقة تامة:

– أثناء الجولة الماضية عندما كنتُ قابعًا بسجون أسيادكم الفرس بطهران، كان لي تصرف من نوع آخر لكي أنجو وأرجع لوطني العراق، واليوم سيكون لي تصرف آخر معكم ولن تستطيعوا أن تمسوا شعرة من رأسي وأنا في بغداد وأعلى ما بخيلكم اركبوه، بعد أن انتصرت عليكم في إيران وعدت لوطني..

فقال باستهزاء:

– هل أنت مجنون لتتصور أننا عملاء لإيران؟!

فقلت بثقة:

– نعم، تهديدك لي بسلخ جلدي يؤكد ذلك، ومع احترامي لك فحتى لو كنت برتبة عالية وتشغل منصبًا أمنيًا رفيعا، فهناك في إيران تكشفت لي حقائق أن من كان هو أعلى منك بالرتبة والمنصب قد خان العراق وأصبح صبيًا بيد الفرس الأنجاس، وأجزم أنك على إطلاع تام بهذا الموضوع. من ناحية أخرى فالمنطق يقول إن من له مصلحة بإذلالي وسلخ جلدي وأنا لم أفعل شيئًا يتعارض مع أي نهج وطني يؤمن به كل عراقي شريف، سوى هروبي من إيران لأرجع لوطني؟! فإن كان هذا ذنبًا لا يغتفر ويجب عليَّ بأن أدفع ثمنه فبإمكانك إحالتي إلى المحاكم المختصة لتنظر بشأني وينتهي الموضوع.

– الوثائق التي جئت بها من إيران تشير إلى أنك كنت تعمل مع المخربين (البيشمركة) عن جَد، ولم تكن مرغمًا أو مضطرًا كما ادعيت بإفادتك، كما أن شكلك لا يوحي أنك قد تعرضت للتعذيب عندهم فما قولك بهذا؟

– إذن أنت تنظر لي على أني كنت مخرب (بيشمركة) بحق وحقيقة، وتلك إشارة كان قد أعتقد بها وصدقها محقق الاستخبارات الإيرانية وهذا ما جعله يحجم بالإقدام على تعذيبي كما كانوا يفعلوا كل ساعة مع إخوتي الأسرى العراقيين، ولولا هذا لكنت الآن قابعًا بإحدى أقفاص الأسرى العراقيين بإيران..

فقال بسخرية:

– ولو حصل هذا لكان حالك هو حال أي أسير عراقي بإيران ولكنا قد تخلصنا من الورطة التي سببها جنابك لنا برجوعك هذا...

فقلت بحزم:

– أولاً العراق وطني، ولي فيه ما لك ولكل عراقي، وأنا أتفهم الإحراج الذي أنت فيه لأنك لم تجد أي سبب يديننني وبالتالي ستقع عليك مسؤولية التوقيع بإطلاق سراحي وهذا ما لا تريد فعله لأنه على ما يبدو أن لك شكوك بموضوعي هذا، ثانيًا موضوع رجوعي مهم لأني نقلت لكم الصورة التي لا تعرفوها عن أحوال الأسرى العراقيين ومعاناتهم بإيران، وتمنيك أني لو كنت قد استمريت لأبقى كأسير بإيران فهذا معناه أن تلك المعلومات عن إخوتي الأسرى التي وضعتها بين أيديكم هي ليست بذات قيمة عندك..

– على ذكر الأسرى العراقيين، اذكر لنا حكاية ذلك الضابط التكريتي الأسير الذي اسمه النقيب حسين هيلان.

أخبرته ما توفر لي أن أعرفه عنه وعن معاناته بالأقفاص الانفرادية بمعسكر دوژبان مركز. مع استهجاني الشديد بغضه الطرف عن أحوال باقي الأسرى، ومنهم الأسير البطل حمدي جاسم هزاع الذي عذبه الفرس أمام ناظرينا بنفس القفص الذي كنت فيه بطهران. لأن صاحبنا هذا الذي كان يحقق معي كان يتكلم بلهجة أهلنا العراقيين من سكنة تكريت، ويبدو أنه لا يهتم بأحوال غيرهم من الأسرى الذين دونت أسمائهم بإفادتي. فقال:

– حسنًا احكِ لنا موضوعك من البداية وحتى النهاية.

– لقد شرحت لك ذلك مفصلاً في المرة السابقة عندما كنا في الشعبة الرابعة بوزارة الدفاع..

فقال متعجبًا:

– كيف علمت أني هو نفس الشخص الذي حقق معك في المرة السابقة وأنت معصوب العينين؟!

فقلت متبسمًا:

– لقد رأيتك ببصيرتي وليس ببصري..

فقال بهزل:

– حسنًا، هل تستطيع أن تخمن كيف هو شكلي؟!

فقلت بثقة:

– إنك عربي ذو سحنة سمراء، متوسط القامة، مملوء الجثة...

وقبل أن أكمل خرجت ضحكة عفوية من شخص آخر كان يجلس بناحية أخرى من الغرفة، فأيقنت بأني قد أصبت بالصدفة بذلك التخمين. فقال المحقق:

– كل الذي تكلمنا به هو خارج محضر التحقيق، الآن أطلب منك أن تحكي موضوعك بالتفصيل الممل كما فعلت في المرة السابقة.

فذكرت له نفس الوقائع التي دونتها في السليمانية وكررتها في استخبارت الشعبة الرابعة من غير أن أنقص أو أزيد بشيء، ولكن من غير تلك الحماسة التي كنت عليها أثناء التحقيق السابق بسبب التكرار الممل، وبسبب الرائحة الزكية للشاي العراقي المعطر بالهيل الذي كان ينبعث من أقداحهم وضرب برأسي المدمن على تناوله، وأفقدني تركيزي بشكل لا إرادي أثناء حديثي.. وبعد أن أتممت تكرار إفادتي طلب مني المحقق التوقيع على ما أكدته بإفادتي التي استمرت أكثر من ثلاث ساعات متواصلة من غير مقاطعة، فوقعت وعيني معصوبة ولم أهتم على ماذا وقعت، ليقيني أن التحقيق السابق والحالي كان يُسجل صوتي وبالتالي لا يمكن لهم أن يحرفوا أقوالي، بدليل أنهم كانوا

يتحاشوا ظهور أصواتهم خلال التسجيل، وبعدها نادى ذلك المحقق على الحراس من أجل أن يأخذوني قائلاً لهم: خذوه إلى مكان يكون مرتاحًا فيه وأحسنوا من معاملته.. وهذا يعني أنه كان يعلم بتفاصيل ذلك المكان السيء الذي وقفت فيه بشكل متواصل على مدى الأيام الأربعة والغاية كانت معروفة الأسباب.

اصطحبني أحد الحراس وكان لطيفًا معي حتى وصلنا لباب إحدى الزنازين، وأنا متشكك من مقولة ذلك المحقق، إن كان فعلاً قد أوصاهم خيرًا بي أم إنه كان كلامًا عابرًا كما فعل معي في المرة السابقة لأنتهي بمكان أتعس من سابقه سأتحسر حينها على شم نسمة من الهواء، سؤال إجابته ستأتيني بعد قليل، ولكن ثمة سؤال آخر كان يطرح نفسه وجعلني متحير أكثر، فهل ذلك المحقق تعاطف معي وتفهم دوافعي؟ أم أنه كان يخشى أن يمسني بسوء، وهو أمر سيعرضه للمحاسبة نتيجة اعتقاده أن موضوعي هذا قد يطرح على جهات أمنية عليا، من شأنها أن تستدعيني وتتعاطف معي، وبالتالي سيؤذونه عندما يروا أثار تعذيبه لي، هذا إذا لم أكن أنا المشتكي عليه.

رجحت الاحتمال الثاني لأن المحقق كان يبدو من أولئك المتعطشين للدماء، ولو أني دخلت عليه بقضية تافهة نتيجة وشاية من مخبر سري ليست ذات أبعاد وطنية، لكان قد سلخ جلدي بسياطه قبل أن يعلقني بسقف غرفته..

بعد أن فتح الحارس باب تلك الزنزانة؛ فك القيد من يدي وأزال العصبة السوداء عن عيني، ثم أدخلني لأجد نفسي بقاعة مستطيلة كبيرة، وقد استلقى المساجين على بطانيات فرشت بذات اليمين والشمال من تلك القاعة، فتنفست الصعداء وحمدت الله كثيرًا على أنه رحم بحالي بتلك المحنة القاسية، فاخترت لنفسي مكانًا شاغرًا للجلوس ورميت بنفسي إليه لأتمدد على طولي، وكأني

كنت في حلم من تلك الأحلام الجميلة التي تتراءى لنا فيها الأشياء التي نتمناها ولا نحظى بها، وكالعادة كما بكل السجون لا بد من طرح نفس السؤال عن قضيتي وسبب سجني؟ فقلت لهم إن موضوعي يتعلق بمسألة مشاجرة بسيطة وسيطلق سراحي قريبًا جدًا، وذلك من أجل تجنب العداء الذي قد يناصبني به من دخل هناك بسبب انتمائه لحزب الدعوة الموالي لإيران التي هربت منها.. فسألني أحدهم:

– كيف اتفق أنهم لم يضربوك أثناء التحقيق؟!

– ألم أقل لكم إنها مسألة تافهة بسيطة..

وهنا تبين لي أن كل من كان موجودًا بتلك القاعة كان قد تعرض للتعذيب الجسدي، وبدوري سألتهم:

– ماذا عنكم، هل أنتم هنا لتقضوا محكومية بالسجن أم ماذا؟

فقال أحدهم:

– نحن الآن في المحطة الأخيرة لنا بهذا المعتقل، لأن من يخرج من هذا الباب فإنه حتمًا سيذهب لخارج المعتقل، باستثناء الحالات التي تستدعي المثول أمام القاضي لتثبت الأقوال التي انتهت عليها التحقيقات، ولكن السؤال هو إلى أين يذهبوا عندما يصبحوا خارج المعتقل؟ فذلك أمر يقرره القاضي..

– ومن ينكر الأقوال التي يريده القاضي أن يوقع عليها؟ فماذا سيكون شأنه؟

فقال أحدهم:

– يرجعه القاضي لنفس المحقق الذي تولى التحقيق معه، ولا حاجة لأن نذكر ماذا سيصاحب إعادة التحقيق، ثم يرجع لنفس القاضي ليؤكد أقواله التي أنكرها في المرة السابقة، ونصيحتنا لك ألا تنكر أقوالك عندما يستدعيك القاضي..

– أين يجلس القاضي؟ هل في المحكمة أم إنه يتواجد هنا بهذا المعتقل؟

رد أحدهم قائلاً:

– إن القاضي هو أحد منتسبي هذه الدائرة.

مكثت بتلك الزنزانة الكبيرة من غير حدوث أي مشاكل تذكر، باستثناء معاناتي من تفشي القمل الذي كانت لسعاته على نحو شرس، وهكذا تأقلمت مع ذلك الوضع، وقد علمت من المساجين أن من يوقع على إفادته ينتهي عندها التحقيق معه، وأنا كنت قد وقعت عند انتهاء التحقيق الأخير معي من غير أن أعرف على ماذا وقعت، واستنادًا لما قاله لي بعض السجناء الذين مضى عليهم فترة طويلة بتلك الزنزانة، فمن المفروض أن يبعث القاضي بطلبي من أجل المصادقة على أقوالي، لكي يتمكن من بيده قرار إطلاق سراحي أن يستند على ما سيقوله القاضي بحقي، وهذا الأمر كان مستبعد من وجهة نظري لأن حالتي كانت خاصة جدًا، كما أنني لم أتهم رسميًا بأية تهمة واضحة وصريحة، إذا ما استثنيت تلك التعليقات النارية التي تفوه بها المحقق بأخر تحقيق لي معه، وبالتالي ماذا سيُعرض على القاضي إذا ما مثلت أمامه؟ هذا ما ستكشفه لي الأيام القادمة.

وحتى ذلك الحين لم أجد أمامي من شغل شاغل أقضي به وقتي سوى الاطلاع، من خلال الإنصات على ما كان السجناء يبوحون به طوعيًا بعضهم لبعض، بخصوص التهم التي كانت قد وجهت لهم من قبل من حققوا معهم، فوجدتهم على نوعين أو من مجموعتين، الأولى منهم كانت دعاوى عادية مثل تهمة التستر أو التهجم أو التذمر أو حيازة السلاح الناري بدون رخصة أو التسلل عبر الحدود وغيرها من تهم الوشايات الرخيصة بما قيل وقال. أما الثانية منها فهي التهم الخطيرة التي تتعلق بأمن الدولة من خلال الانتماء للأحزاب المعادية للدولة والمحظورة رسميًا مثل حزب الدعوة الموالي لإيران، والحزب الشيوعي العراقي، وكل الأحزاب الكوردية بكافة مسمياتها، لأنها تعتبر من وجهة نظر السلطة متأمرة، لأنها تعمل على قلب نظام الحكم آنذاك.

وكان كل المتهمين بجميع أشكالهم قد تمَّ إلقاء القبض عليهم، ولم يكن بينهم أحد سلم نفسه طواعية باستثنائي عندما دخلت السجن بمحض إرادتي وعن سابق إصرار، ولا يتوهم أحد أنني كنت أتوقع أن تفرش السجادة الحمراء لي عندما أصل للعراق وببغداد على وجه التحديد. كما أن البعض من أولئك السجناء قد تمَّ إلقاء القبض عليهم بالمصادفة وليس جراء متابعة استخبارية له، ومثال ذلك تلك الدعوة القضائية التي كانت مشهورة بذلك المعتقل واتهم فيها أكثر من خمسون شخصًا بتهم مختلفة لكل واحد فيهم، والغريب في أمرهم أن أحدهم لم يكن يعرف سوى واحد أو اثنين من باقي المتهمين بتلك الدعوة، حتى التقوا بهذه القاعة أو بمثيلتها التي كانت مجاورة لها، بعد فترة قضوها بالتحقيق والسجن بتلك الزنازين الصغيرة وقوفًا، بعد أن وقعوا على أقوالهم، وعندها عرف كل واحد فيهم تسلسله ودوره بتلك القضية.

وملخص حكايتهم كانت كالآتي: كان هناك شخص مراقب من قبل الأجهزة الأمنية بسبب أن والديه كانا قد سافرا إلى بلغاريا هروبًا من احتمال القبض عليهم، لأنهما من الأعضاء القياديين في الحزب الشيوعي الذي ساءت علاقته مع الدولة بعد أن جمعتهم لفترة قصيرة بما كانت تسمى بالجبهة الوطنية، ولم يتمكنا من اصطحاب ولدهما الوحيد معهما، لأنه كان يقضي الخدمة العسكرية الإلزامية التي تمنعه من السفر لخارج العراق بصورة رسمية، وعندما تمَّ إلقاء القبض على ولدهما واجهوه ببعض الأنشطة الاجتماعية الاعتيادية من خلال تحركاته ومن التقى به على طول فترة مراقبته قبل الاعتقال، ومنها أنه كان قد التقى بصديق له كان يسكن بحي الزعفرانية، وقد تمشى معه لمسافة ثم أنضم لهما شخص ثالث أثناء الطريق، ولهذا سأله المحقق بعد اعتقاله عن طبيعة العلاقة التي جمعته مع أولئك الشابين، فقال لهم:

– إنني أعرف الشخص الأول منذ أيام الدراسة حتى افترقنا ليذهب هو ويدرس في الجامعة، وذهبت أنا للخدمة العسكرية الإلزامية بسبب عدم استمراري في الدراسة لظروف عائلية خاصة..

وعندها سألوه عن الشخص الثاني الذي انضم لهم أثناء الطريق، وما طبيعة علاقته بذلك الشخص، فقال لهم:

– أنا لا أعرفه، ولم يسبق لي أن التقيت به من قبل لأنه كان صديقًا لصاحبي الذي كان يتمشى وإياي.

فسأله المحقق عن المواضيع التي كانوا يتكلمون بها أثناء سيرهم، فقال له:

– لقد تكلمنا عن أشياء اعتيادية تتعلق بالحياة العامة والدراسة وما هو متوفر أو مفقود من الفواكه والخضر في الأسواق..

وعلى أثر تقديم صاحبنا هذا لإفادته، أغاروا ليلاً على بيت صديقه الأول وجلبوه بشكل مهين أمام مرآى ومسمع أهله وكل جيرانه، ليودعوه فور وصوله بتلك الزنزانات الضيقة ليستوي ويختمر من خلال الوقوف لعدة أيام، وحينها سيكون جاهزًا للتحقيق معه، وتلك هي طريقتهم لكل من يؤتى به للشعبة الخامسة السيئة الصيت، كما أنهم لا يستثنون من هذا التقليد الإجرامي كل من كان يحول لهم أو هم يقبضوا عليه وذلك ما فعلوه معي أيضًا، من أجل أن ينهكوه وينالوا من كبريائه قبل أن يخضع للاستجواب الأول، لكي يستجيب فورًا ويصبح أكثر تعاونًا ليعترف لهم بما فعله وما لم يفعله خشية إرجاعه إلى نفس الزنزانة ليقف على أرجله لأيام أخرى.

وعندما استدعوه للتحقيق سألوه عن علاقته بذلك الشخص الذي سافر والديه لبلغاريا عندما انكشف أمرهم أنهم كانوا أعضاء بارزين بالحزب الشيوعي، فأخبرهم أنه يعرفه منذ أيام الدراسة المتوسطة، وإنه يجهل النشاط السياسي

المحظور لوالديه، ولو كان يعلم بهذا لكان قد كتب تقريرًا إلى مسؤوله في التنظيمات الطلابية لحزب البعث. فسألوه عن الشخص الآخر الذي انضم لهم أثناء سيرهم بالطريق، فأخبرهم أنه جار له بنفس محلته، فسألوه عن نوع الحديث الذي شاركهم به ذلك الجار، فأخبرهم أنه كان حديثًا عاديًا يتعلق بفقدان الطماطم والبرتقال من الأسواق.

وعندها أرسلوا مفارزهم على الفور لتقبض على جاره هذا ثم وجهوا له تهمة التذمر، بعد أن نال قسطًا من التعذيب ولم يحصلوا منه على أية معلومة أخرى ذات أهمية لكي يمسكوا من خلالها برأس خيط آخر الله أعلم إلى أين سيقودهم. أما صاحبنا طالب الجامعة فإنهم قد أكملوا مشوار التحقيق معه وعلقوه من يديه التي كبلت إلى خلف ظهره، وقالوا له ما دمت نزيلاً لدينا يجب عليك إخبارنا عن كل صغيرة وكبيرة تحصل في الجامعة التي تدرس فيها؟ فلم يستطع أن يقول لهم إنه لا يعرف شيئًا عن كل ما يحصل بالجامعة، لأنه لو فعل ذلك فسيبقى معلقًا بسقف غرفة التحقيق، وتلك معاناة صعبة للغاية، ولا يستطيع أحد على الإطلاق أن يقاوم آلامها، وإذا حاول أن يعاندهم فإنه سيخسر كلتا يداه، لأنها ببساطة سوف تتمزق وتنخلع عن أكتافه. فقال لهم بعد ثوان من تعليقه:

– أنزلوني وأنا سأخبركم بكل شاردة وواردة تحصل بالجامعة ولكم أن تختاروا ما ترغبون بانتقائه وأيًا منها سيفيدكم.

وأخذ المسكين يحدثهم عن كل ما كان يراه أو يسمعه كل يوم عندما يذهب صباحًا إلى الجامعة وحتى مغادرته إياها في المساء. وعندها استوقفوا كلامه لكي يوضح ما ورد بكلامه عن مجاميع الطلبة التي تلتقي في فناء الجامعة بعد وقبل الحصص الدراسية، فأخبرهم أنه لم يكن يلتقي بهم، لكنه كان يعرف أن تلك المجاميع كانت من نوعين، الأولى منها كانت تتحدث عن الدين الإسلامي وتعاليمه، والثانية كانت بمعزل عن الأولى تتحدث عن الحياة العصرية ومباهجها.

فسألوه عن أسماء من كانوا يتحدثون بالأمور الدينية، فزودهم بأسماء أولئك الطلاب. ثم سألوه إن كان قد بلغ مسؤوله الحزبي بذلك الأمر، فقال لهم إنه لم يسمع منهم ما كان يستوجب الإخبار عنه. فاعتبروه مقصرًا بهذا وألصقوا به تهمة التستر، ووقع على أقواله وانصرفوا لغيره من خلال إرسال مفارزهم لتلتقط أولئك الطلبة الذين زودهم صاحبنا المسكين بأسمائهم لكي يحققوا معهم على نفس الطريقة منذ أول وصولهم ولحين مثولهم للتحقيق.

وأثناء التحقيق معهم كل على انفراد؛ فرزوا واحد منهم ليصبوا جام غضبهم عليه، لأنه كان المتحدث البارز بتلك المواعظ الدينية بداخل الحرم الجامعي، فركزوا التحقيق عليه وصرفوا الباقين ليأخذوا دورهم بالانتظار بإحدى القاعتين الكبيرتين التي كنت أنا نزيل واحدة منهما، بعد أن قدم كل واحد منهم ما يعرفه من معلومات تخص جارًا أو قريبًا أو زميلاً أو حتى أخًا له.

ومن خلال التحقيق مع ذلك الطالب المتدين علموا أنه قد تتلمذ الدين عندما كان يستمع إلى الإرشادات والمواعظ الدينية من رجل من نفس محلته، كان يتواجد بالجامع القريب من بيت ذلك الطالب، فاعتقلوا ذلك الواعظ وكان موظفًا بمصلحة السكك الحديدية، وبعد أن علقوه من يديه بسقف الغرفة استغفلوه من خلال الادعاء أنهم قد كشفوا عناصر كل الخلية التنظيمية التي ينتمي إليها، وقد اعترفوا كلهم أنه كان العقل المدبر لكل فعاليات حزب الدعوة! فانهار ذلك الدعوجي صاحب المواعظ فور سماعه لذلك الخبر الملفق واعترف لهم بكل نشاطه بذلك الحزب المحظور لأنه موالي لإيران بزمن الحرب معها، وبدوره كشف لهم عن كل أسماء التنظيم.

وعلى الفور قبضوا عليهم كلهم واعترفوا بانتمائهم لحزب الدعوة، وبدورهم أيضًا كشفوا عن أسماء أخرى، حتى أصبح عدد جميع من ألقي القبض عليه

بتلك الدعوة أكثر من خمسين شخصًا، تمَّ إحالة من كان متهمًا بتهمة التستر أو التذمر أو التهجم إلى المحاكم الخاصة ليعاقبوا، ويحكم بالإعدام شنقًا من اعترف منهم بانتمائه لحزب الدعوة، وتأجل تنفيذ حكم الإعدام للبعض منهم، بغرض الحاجة لهم كشهود ضد متهمين آخرين سيلقى القبض عليهم حال توفر معلومات عن مكان تواجدهم بعد أن فروا من مناطق سكناهم، ومن هؤلاء الذين قد أرجئ تنفيذ حكم الإعدام بهم، كان الشخص الجالس بجواري بنفس تلك القاعة التي كنت حبيسًا فيها، والمهزلة الكبرى أنه كان معينًا كمسؤول عني وعن باقي المساجين بصفته مراقبًا للقاعة..

أما صاحبنا الذي كان تسلسله في تلك القضية هو الرقم واحد فإنه قد عُذب تعليقًا من يديه المربوطتين خلف ظهره لفترة طويلة، حتى فقد إحساسه بوجودهما لتصبحا بعدها متدليتين من غير حركة وكأنهما خرقة بالية، لأن المحققين أرادوا أن يحصلوا منه على اعتراف أنه كان سائرًا على خطى والديه اللذان هربا إلى بلغاريا، ولم يعترف لهم بشيء لأنه ببساطة شديدة لم يكن منخرطًا مثلهما بتنظيمات الحزب الشيوعي العراقي.

ومن هذه الحكاية وغيرها من الحكاوي المختلفة الأنواع؛ استدليت أن أجهزة الأمن لم تكن على درجة من المهنية بجمع المعلومات عن من هو مشتبه به، لكي تتأكد أنه قد قام بعمل معادي بالضد منهم ثم تقبض عليه لتواجهه بالأدلة التي جمعت عنه، هذا لأنها اختصرت المسافة وانتهجت طريقة الصيد في الماء العكر وأخذت تعذب كل من يرد اسمه بتحقيقاتها العشوائية المتخبطة، من أجل أن تكتشف ما كانت عاجزة عن كشفه من خلال التحري وجمع المعلومات البينية، غير آبهين بمصلحة هذا المواطن العراقي البسيط، وما سيلحق من ضرر بسمعة الأبرياء منهم عندما يخرجوا من ذلك المعتقل، ليرجعوا يعيشوا

بسلام وسط مجتمعهم الذي سينبذهم من خلال عدم التعامل معهم مجددًا، تملقًا للسلطة وخشية من بطشها الذي لم يكن له حدود، وبذلك سيصبح كل هؤلاء الأبرياء مرضى نفسيين بعد تحطم مستقبلهم الدراسي والمهني وحتى الاجتماعي، بسبب تلك الممارسات التي لا يقبلها ولا يقر بها أي عراقي منصف وشريف..

وكنت طيلة تلك الفترة التي اختلطت بها بباقي المساجين متكتمًا على موضوعي، حتى دخل علينا بمساء إحدى الليالي شخص باللباس العسكري، من غير حمله لأية رتبة عسكرية، وكان الوحيد الذي رأيت ملامح وجهه بوضوع بذلك المعتقل، لأننا كنا ممنوعين من رفع رؤوسنا عندما يكلمنا أي شخص من الحراس الذين يدخلوا علينا بين الحين والآخر بغرض تفقد المكان، وعندها صف المساجين بطابور وأخذ بسؤال كل واحد منا عن ما اقترفه من جرم وما نوع الحكم عليه، حتى وصل إلي وسألني نفس السؤال؟ فأجبته أني لم توجه لي أية تهمة حتى الآن. فسألني عن الذنب الذي اقترفته؟ فأجبته أني لم أفعل أي شيء يخالف القوانين. فضاق ذرعًا وسألني عن الموضوع الذي من أجله دخلت لهذا المعتقل؟ فقلت باستحياء وأنا أنظر لمن حولي عله يفهم مقصدي وقلت له إن بإمكانه الاطلاع على ملف قضيتي ليعرف كل التفاصيل. فقال بصرامة إنه يريد أن يعرف التفاصيل مني مباشرة، فلم أجد مفرًا إلا أن أقول له إن سبب وجودي للتحقيق بذلك المعتقل كوني هربت من أقفاص الأسرى العراقيين بطهران، فقال باستهجان وهو يشير برأسه إلى الشباك العالي بتلك الزنزانة إن كان باستطاعتي الهروب منه، فسكت ولم أجبه بشيء لأن أوضح جواب لمثل هكذا سؤال سخيف يجب أن يكون بعدم الجواب، وبذلك عرفت أن هذا الشخص التافه هو مجرد متطفل يسعى لقضاء بعض الوقت من خلال استعراض مصائب الناس ليستمتع بها، وهو ليس مسؤول كما أوحى لنا

بتصرفه هذا، لأنه ليس إلا رئيس للحراس أو ما شابه ذلك من تلك المهن الحقيرة التي يمارسها هو وأمثاله من الصيع عند تعذيبهم لكل من يقع بين أيديهم، وعند ذلك تركني لشأني وانصرف عني ليسأل من هو بعدي في ذلك الطابور الذي اصطففنا به، حتى انتهى بسؤال الجميع وخرج بعدها.

عندها انهالت علي أسئلة المساجين من كل جانب من أجل أن يعرفوا حقيقة أمري، باعتبارها كانت الحالة الوحيدة التي لم يسبق أن مرَّت عليهم من قبل، فاكتفيت أن أحكي لهم عن مشاهداتي للسجون الإيرانية وأقفاص الأسرى العراقيين من غير أن أجيبهم على كيفية خلاصي من تلك السجون، وكيفية عودتي للعراق باعتباره سرًا كنت قد منعت من البوح به إلى أن ينتهي التحقيق بموضوعي، فشكك البعض بمجريات ما حكيته لهم وصدق آخرون كل كلمة قلتها. وكان أول من صدق بحدوث ذلك هو مراقب القاعة، لأنه كان من حزب الدعوة الموالي لإيران، وبالتالي تصديقه لي جعله يناصبني العداء بكل صغيرة وكبيرة، باعتباره أقدم سجين ومراقبًا من أجل الإشراف على تنظيف القاعة ودفع كل من ينادى باسمه من قبل الحراس إلى خارج الزنزانة، وقد اشتكى علي عند الحراس لمرات عديدة بحجة امتناعي للمشاركة بالتنظيف، ولم يجد له منهم أذانًا صاغية لأنهم – كما كان يبدو – على معرفة بدوافعه للانتقام مني ومن بعض المساجين الآخرين من خلال الكاميرات المزروعة بتلك القاعة بغرض مراقبتنا على مدار الساعة..

ومرت الأيام وأنا صابر بتحملي للجوع بسبب سوء التغذية، وبتحملي القسري للسعات القمل الذي انتشر بكل أنحاء جسدي، واعتاش على دمي حتى أصبح هو همي الوحيد بذلك الانتظار الطويل وقد أوشكنا حينها أن ندخل بفصل الصيف وأنا لا زلت مرتديًا للملابس الشتوية، فقد دخلت لذلك المعتقل بمنتصف الشهر

الأول من تلك السنة ١٩٨٣، وأثنائها وزع الحراس علينا بعض الدشاديش البيضاء كصدقة بمناسبة حلول الذكرى السنوية لتأسيس حزب البعث في السابع من نيسان، فلم أحصل على واحدة تناسب مقاس طولي ورضيت مضطرًا أن أرتدي واحدة كانت قصيرة، من أجل أن أرمي بملابسي الشتوية التي عشعش وتكاثر فيها القمل.

وفي تلك الأيام من شهر نيسان أخذ الحراس ينادوني بين الحين والآخر من أجل أن يسألوني من خلال فتحة بباب الزنزانة عن تاريخ دخولي إلى ذلك المعتقل، وتلك حجة واهية لأن ذلك السؤال قد تكرر لعدة مرات، وبذلك أصبح واضحًا لي أن الاهتمام بقضيتي التي أصبحت راكدة هو نتيجة شيء كنت أجهله قد استجد لتحريك القضية بعد أن أهملوني متعمدين طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، وقد صدق حدسي بذلك ولكني حينها لم أعلم بتفاصيله إلا بعد خروجي من ذلك المعتقل، وعلى أثر ذلك الاهتمام نودي بأحد الأيام القريبة اللاحقة باسمي من أجل أن أخرج، فخرجت وكالعادة قيدت يداي وعصبت عيني وأدخلوني إلى إحدى الغرف الخاصة بالتحقيق، وهناك تمَّ رفع القيد من يدي، وسمعت صوتًا مهذبًا عطوفًا شعرت بانتمائي له كعراقي، قال لي:

– نحن لجنة قضائية جئنا للنظر بقضيتك من أجل اتخاذ القرار بشأنها، احكِ لنا من فضلك قصتك من البداية وحتى النهاية.

شعرت براحة كبيرة عند سماعي لذلك الكلام المهذب وأخذت أقص عليهم نفس الكلام الذي ذكرته أثناء التحقيقين السابقين، من غير أن أتشنج، حتى وصولي إلى تلك الفقرة التي كانت تتعلق بحديثي مع مدير الاستخبارات الإيرانية المدعو سرهنك (عقيد) توكان باللغة الإنكليزية وما جد بشأنها من تطور بالأحداث لغير صالحي عندما كنت في سنندج. فقاطعني أحدهم ليقول لي كلامًا هو أقرب للعتاب من المحاسبة:

– ما كان لك أن تفعل هذا لأنك بذلك أوقعت نفسك بورطة كبيرة كنت بغنى عنها.

فقلت له:

– إنكم لم ترسلوني بمهمة استخبارية أو عسكرية لإيران كما اتهمني الإيرانيين لكي أفعل كذا ولا يجب علي أن أفعل كذا، وإذا كان قد حصل هذا فعلاً وإنكم دربتوني على كيفية التصرف عند الوقوع بمثل هذا الموقف، وهذا بالطبع ما لم يحصل بيننا، ولذلك فإني قد تصرفت حينها على سجيتي البسيطة التي قادتني ألا أتحسب لعواقب تلك الهفوة التي دفعت ثمنها غاليًا فيما بعد..

فقال أحدهم الآخر:

– ولكنك شكلك لا يبدو عليه أنك كنت قد عانيت من كل تلك المصاعب التي ذكرتها!

– بإمكانك أن تطلع على شكلي الذي كنت عليه من خلال صورتي المرفقة بسجل أضبارتي بوحدتي العسكرية، لتقارن الفرق بشكلي الحالي وما كنت عليه سابقًا، لتعرف حجم المصاعب التي واجهتها بإيران.

ثم قال لي أحدهم:

– إنك محق بما تقول، ولك أن تستمر بالحديث لتكمل لنا باقي الموضوع.

فأستمريت حتى أكملت حديثي وتوقفت عن الكلام بانتظار أي سؤال قد يوجه لي، فقال رئيسهم الذي كلمني ببادئ الأمر أول دخولي عليهم:

– هل تريد أن تقول شيئًا آخر خارج قولك بإفادتك؟

– نعم، أطلب منكم السماح لي بالاشتراك معكم بالتحليل والاستنتاج لموضوع أعتقد انه يحول دون وصولكم إلى اتخاذ قرارًا من شأنه أن يطلق سراحي، فهل تسمحوا لي بإبداء ملاحظاتي؟

فقال رئيسهم:

– نسمعك تفضل قل ما تشاء..

– أنا أؤمن أن عقلية الإنسان العراقي راجحة وتبحث في المنطق على عكس عقلية الإيراني المتخلفة والمتشبعة بالخرافات بكل نهج يتبعوه، وعليه فإن حضراتكم كمحققين قضائيين عراقيين تختلفون حتمًا عن تلك العقلية الفارسية الخرفة التي تعاملت معي في إيران، والمنطق هنا يقول إن ما قد يطرأ على بالكم أن إيران قد تكون هي من جندتني وبعثت بي إلى العراق هو أمر بعيد عن الواقع ولا يتقبله المنطق، لأن ذلك لو كان فعلاً قد حصل والعياذ بالله فإنهم كانوا سيرسلوني للعراق متسللاً بمساعدة أعوانهم الخونة من العراقيين وأنتم تعرفوهم جيدًا، لأذهب لوحدتي التي هي بعيدة عن مسرح العمليات العسكرية بجبهات القتال مع إيران، عند صدور أول عفو يصدر عن الهاربين من الجيش العراقي، لأن وحدتي بالتأكيد قد قيدتني بسجلاتها أنني هارب من الجيش ولست أسيرًا لدى إيران، ولهذا فإنه ليس من المنطقي أن يدفعوا بي لأذهب إلى استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية لأصرح لهم عن تلك الوقائع التي ذكرتها لكم قبل قليل، ولم تكونوا أنتم أو وحدتي أو حتى أهلي على علم بها حتى رجعت وقلتها لكم بنفسي، ثم تحدث هذه الضجة الكبيرة وأعتقل على مدى الشهور الأربعة الماضية على ذمة التحقيق، والخلاصة أن إيران المللية صاحبة الخرافات والشعوذة عندما تريد أن تجندني أنا أو غيري فإنها لن تسلك هذا المسار الذي أوصلني بين أيديكم الآن...

فقال رئيسهم بلطف:

– كيف عرفت أن هذا الأمر قد يطرأ على بالنا ونحن حتى الآن لم نوجه لك التهمة بذلك؟!

قلت متبسمًا من أجل تلطيف جو تلك المحادثة إن لم أقل المكاشفة الصريحة معهم:

– ألم توجه لي تهمة التجسس لصالحكم عندما كنت في إيران؟!

وتلك إشارة أردت بها أن أقول لهم بكلام مبطن أني قد خبرت كل هذه الأساليب من خلال تعاملي مع ما يفكر به المحقق عادة في قضية كهذه، وأن أعمل على حل تلك العقدة التي ربطت برؤوسهم من خلال تصورهم أن إيران قد جندتني لصالحها كعميل رخيص ضد مصلحة أبناء وطني..

وعند تلك النقطة انتهت المقابلة بعد أن شددوا بكل صدق على من تولى إعادتي لزنزانتي أن يعاملوني بلطف ويلبوا احتياجاتي، وعندها وجدت أنه من غير المناسب أن أشتكي من حالي السيء لما عانيته من جوع وقذارة، فأثرت أن أحترم نفسي وأمضي عائدًا لزنزانة سجني، وهناك استرديت أنفاسي وتيقنت أن أيام وجودي بذلك المعتقل اللعين قد باتت معدودة، بل هي قريبة بعونه تعالى، وفعلاً نودي اسمي في صباح إحدى الأيام للخروج مع جمع من المساجين، فعرفت على الفور أني سأخرج من ذلك المعتقل وليس لغرض التحقيق أو ما شابه، ذلك لأنني لم أطلب للخروج وحدي، ولأن التحقيقات عادة ما تكون أثناء فترة المساء أو بوقت متأخر من الليل.

وعندها خرجت مع تلك المجموعة من غير أن يعصب الحراس عيوني أو يقيدوا يداي، واكتفوا بتحذيرنا بوجوب النظر إلى الأرض لكي لا نرى تفاصيل ذلك المكان المريع وملامح حراسه الدمويين، فاقتادونا وكنا خمسة مساجين إلى مخزن تراكمت به الأحذية القديمة والرثة لكل مساجين ذلك المعتقل من أجل أن ينتقي كل واحد منا زوجًا من الأحذية، وبطبيعة الحال لم أجد حذائي لأنه قد سرق من قبل الحراس أول وصولي لهم، وأصبح لازمًا أن أنتقي أي حذاء آخر،

فلم أجد سوى كومة من الأحذية العسكرية التي عادة ما تستعمل عند التدريبات وتدعى بالعامية البسطال ويلقب نكاية بغاية الهزل من قبل بعض الجنود أنه أبو طلال، فأجبرني الحراس أن ألبس إحدى تلك الأحذية العسكرية، ففعلت ذلك على الفور قبل أن يرجعوا بكلامهم ويعيدوني إلى الزنزانة لأبقى فيها لأيام أخرى، وبعدها اقتادونا إلى خارج تلك البناية ليرموا كل واحد منا بسيارة مغلقة لأنه على ما كان يبدو أن كل واحد منا كانت له جهة مغايرة عن الباقين.

صعدت إلى إحداها وانطلقت بي من غير أن أعرف أو أستدل إلى أين كانت وجهتنا، لأنني لم أستطع أن أرى شيئًا خلال مسيرتنا بشوارع مدينة بغداد على الرغم من عدم وجود العصبة السوداء على عيني وأنا بداخل ذلك الصندوق الحديدي المحكم بسيارة البيك أب، حتى توقفوا وأنزلوني، فعلمت أننا في أمرية الانضباط العسكري بمقرها العام، فاستلمني مأمور السجن هناك وقادني إلى زنزانة التسفيرات التي بالكاد وصلتها لأنني أصبت بالعمى المؤقت بسبب عدم رؤيتي أو تعرضي للشمس طيلة الأربعة أشهر الماضية، ولدى دخولي إلى تلك الزنزانة التي كنت قد دخلتها عندما تمَّ تسفيري إليها قادمًا من كركوك، ضحك جميع المساجين هناك وهم يتطلعوا لي بسبب ارتدائي ذلك الحذاء العسكري الذي يعلوه دشداشتي البيضاء القصيرة، بذقني الطويل الذي لم يتسنَ لي حلاقتها طوال فترة سجني ببغداد، حتى بات شكلي مطابقًا بالتمام لأولئك الجنود الإيرانيين الذين كان أحدهم يرمي بنفسه على الألغام بساحات الحرب، وعندما وقعوا بالأسر رأيناهم من على شاشات التلفاز وهم يرتدون الكفن الأبيض القصير مع الحذاء العسكري بلحاهم الطويلة، وحينها لم يكن ينقصني سوى أن أحمل البندقية لكي أبدو مثلهم بالكمال والتمام.

وأثنائها عملت بكل جهد من أجل الاتصال بصديقي الحميم الذي ساعدني في المرة السابقة من تواجدي بنفس تلك الزنزانة، ولكن من غير جدوى، فعملت على أن أجد أحدًا من المساجين الذين قد يطلق سراحهم قريبًا من أجل تزويده برقم هاتف أهلي لكي يتصل بهم ويخبرهم بمكاني، ثم يأتوا لمواجهتي ويجلبوا لي ما كنت أحتاجه من ملابس أرتديها، فلم أوفق أيضًا لأن جميعهم كانوا مثلي بانتظار تسفيرهم لوحداتهم، وبين هذا المسعى وذلك الجهد جاء دوري لأن أسفر إلى وحدتي مخفورًا بصحبة مأمور من تلك الأمرية، فخرجت من سجن المقر العام لأمرية الانضباط العسكري وأنا مكبل اليدين وعلى تلك الهيئة المخزية، واتجه بي مأموري الجديد مباشرة إلى كراج النقل بمنطقة علاوي الحلة ببغداد من أجل أن نستقل الحافلة المتجهة إلى محافظة الأنبار، فترجيته أن نمر ببيتي القريب من دائرة الانضباط من أجل أن أرتدي ملابسي ثم ننطلق بمشوار سفرنا، بحجة أني قد أصبحت بتلك الدشداشة القصيرة والجزمة العسكرية وذقني الطويل أشبه بأولئك الأسرى الإيرانيين، فأبى أن نمر ببيت أهلي باعتبار أن الملابس متوفرة على طول طريق سفرنا إلى وحدتي بقاعدة الوليد الجوية القريبة من قضاء الرطبة الحدودي، فاستسلمت لذلك الأمر الواقع عندما وجدت أن مأموري لم يكن متعاونًا معي، ممنيًا نفسي أنني على أقل تقدير سأتمكن من شراء نعلاً من البلاستك الرخيص لكي أرمي بتلك الجزمة العسكرية فور وصولنا إلى كراج النقليات، ولكن القدر على ما كان يبدو قد رسم لي بختام رحلتي هذه أن أكون مسخرة بل مضحكة لكل من كان ينظر لتلك الهيئة المخزية.

وعند وصولنا لكراج النقل مضى بي مأموري مباشرة لإحدى الحافلات المتجهة لمحافظة الأنبار، من غير أن يمنحني الفرصة التي وعدني بها لكي أشتري نعلاً من تلك الأكشاك المنتشرة بذلك المكان، وأنا وسط دهشة واستغراب كل من كان

متواجدًا بذلك الكراج الذي وصلناه من خلال سيارة تاكسي أجرتها لتذهب بنا مباشرة لكراج النقل، فأجلسني مأموري بتلك الحافلة الصغيرة وكان سائقها يسعى للحصول على مسافرين آخرين، وتراصف بجواره مأموري عند باب الحافلة وهو يدخن سيكارته حتى يحين موعد انطلاقنا الوشيك باكتمال عدد المسافرين، وعندها لاحظت جمهرة من بعض سائقي الحافلات المجاورة، وهم يتهامسون مع مأموري وهم ينظروا نحوي باستغراب شديد، وعلى أثرها رشقني بعضهم ببعض الألفاظ النابية، وبعضهم الآخر تمادى أكثر وبصق علي من النافذة المفتوحة للسيارة بإشارة لسخطهم علي، ومن الشباك الآخر مد آخرون أياديهم من أجل أن يضربوني، فأصابني الذهول ليس من المفاجأة غير المتوقعة، وإنما لأني قد تعرضت لمثل تلك الإهانات عندما كنت بكراج النقل الإيراني بطهران أثناء تسفيري لمحافظة أرومية وكنت مكبلاً وضربني الجمهور الإيراني كوني أسيرًا عراقيًا، وعندما استفقت من ذلك الذهول غضبت بشدة لتلك الأفعال الرعناء ورديت على إهانتهم لي بنفس الكلمات البذيئة التي وصفوني بها، وبنفس الوقت حاولت الإمساك بتلك الأيادي التي امتدت لتحاول ضربي، وعندها قال أحدهم: انظروا أنه يتكلم العربية مثلنا، فأصبح واضحًا لي أن مأموري السفيه كان قد أجابهم عندما استفسروا منه من أكون، وبدوره أخبرهم من باب الهزل خلال تهامسه معهم أني أسير إيراني مسفر إلى أقفاص الأسرى الإيرانيين بمدينة الرمادي، وأثنائها لم أتمالك نفسي فصببت جام غضبي على ذلك المأمور التافه على ما ألحقه بي من سوء بعد أن شبهته بأبناء الشوارع، مذكرًا إياه أن الزمن العاهر هو الذي جعل الجندي البسيط أن يقتادني مكبلاً وأنا النائب الضابط ليجعل مني مسخرة أمام الخلق، ولم يشف غليلي إلا عندما بصقت بوجهه جراء فعلته السخيفة، وقد هددته بأني سأشتكيه عند وصولنا لوحدتي العسكرية لينال جزاءه جراء فعلته النكراء.

وأثنائها اعتذر مني كل من شارك بتلك الجمهرة الغوغائية بعد أن تيقنوا أني عراقيًا ولست أسيرًا إيرانيًا، وتوجهوا باللوم لذلك الجندي السخيف الذي لم يكن يتصور أن مزاحه سيعرضني لتلك المهانة، من غير أن يخطر على باله قطعًا أني قد تعرضت لنفس ذلك الموقف بطهران قبل عدة أشهر ولنفس السبب ولكن كأسير عراقي. وبدوري أستطيع أن أجزم بشكل يقين أن ولا أي أسير عراقي أو إيراني قد تعرضا لنفس ما تعرضت له من إهانة بكلا المكانين: كراج النقل العام بمنطقة علاوي الحلة ببغداد وكراج السفريات بميدان أزادي بطهران...

بعد تلك الواقعة التي كدرتني كثيرًا انطلقنا إلى مدينة الرمادي بمحافظة الأنبار وهناك تسنى لي أن أشتري نعلاً يناسب تلك الدشداشة القصيرة ليصبح شكلي مقبولاً على الأقل، ومن هناك أكملنا مشوارنا حتى قضاء الرطبة ثم لقاعدة الوليد الجوية التي تبعد عنه أكثر من ساعتين وقد وصلناها مساءً، فسلمني ذلك الجندي المأمور السخيف لاستعلامات القاعدة، وبعدها أودعني ضابط خفر القاعدة بسجن القاعدة، إلى أن يُعرض ما جاء بكتاب الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية على من هو معني بموضوعي في صباح اليوم التالي، وقضيت ليلتي بسجن القاعدة، وهناك التقيت بنفس المساجين الذين كنت قد التقيت بهم قبل خضوعي للتحقيق في بغداد، فتعجبوا وهم يروني مرة أخرى، لأنهم وجدوا أن قضيتي ليس من ورائها أية حرية أو إطلاق لسراح.

ولا زلت أذكر بكل طيب وممنونية أحدهم الذي جمعتني وإياه بوقت سابق ظروف عمل بمكان واحد، واسمه حسين رشيد الذي استقبلني بحرارة وهو يحمد الله ويشكره على سلامتي، ولم يدعني أدخل للزنزانة إلا وغلى لي الماء الحار لأستحم به ثم جهزني بالملابس الداخلية الجديدة، ولم يكتفِ بذلك فقط بل غسل لي دشداشتي التي كانت مملوءة بالقمل، وأصر على أن يساعدني

بالاستحمام، ومع رفضي لذلك لكنه أصر على خدمتي، وأعتقد أن له غرض آخر لم يفصح عنه وهو أنه أراد أن يتأكد بنفسه أن كنت قد عذبت جسديًا أم لا، وهذا ما نقله لباقي السجناء الذين تعجبوا من أن شخصًا عاد من طهران ولم تعذبه الشعبة الخامسة التي كانت تستخدم التعذيب لأبسط القضايا.

بعد أن تنظفت من القمل وقذاراته؛ نمت ليلتي مرتاح البال بعد أن قصصت على الموجودين ما دار معي بإيجاز أثناء التحقيق ببغداد.. وفي صباح اليوم التالي عرض كتاب الاستخبارت العامة على ضابط أمن القاعدة، وبموجبه خرجت من السجن بصحبة أحد عناصر أمن القاعدة، ليسلمني لوحدتي الجناح الفني للقاعدة، وهناك تمَّ إطلاق سراحي، وقد تسنى لي أن أطلع على كتاب الاستخبارات العامة التي أمرت بإطلاق سراحي إذا لم أكن مطلوبًا لقضية أخرى لشمولي بقرار مجلس قيادة الثورة الذي كان ينص بالعفو عن الهاربين من الخدمة العسكرية لمن كانوا بخارج العراق، ولدي تدقيقي لذلك الكتاب تبين لي أن قرار العفو قد صدر خلال الفترة التي كنت فيها على ذمة التحقيق، وإن نسخة من ذلك الكتاب قد أرسلت إلى جهة أعلى من الاستخبارات العسكرية العامة لغرض الاطلاع، ولم أتمكن من معرفة تلك الجهة العليا لأنهم كانوا قد وضعوا شريط أسود لاصق من أجل ألا يعرف أحد من هي تلك الجهة، وعليه فإن شمولي بذلك القرار يعني أني سأستمر بالخدمة العسكرية ولن أسرح أو أحال على التقاعد بسبب قضيتي الكبيرة وغير المسبوقة.

وذلك ما كنت أرغب به وأتمناه بتلك الفترة، على الرغم من أني كنت واثقًا بأنهم شملوني بذلك العفو الذي هو بحقيقته لا ينطبق على من كان بأية نية في إيران، هذا لأنهم عجزوا عن إيجاد مخرج لهم من تلك القضية التي أحرجتهم بوقائعها من جهة، ومن أجل أن لا أسرح من الخدمة العسكرية لأكون تحت

أعين رقابتهم من جهة أخرى، وعلى أية حال فذلك الموضوع لم يشغل بالي كثيرًا حينها بعد أن نلت حريتي من جديد، وأجلت البحث بتفاصيل تلك النتيجة إلى أن تستقر أحوالي لتكون لي جولات أخرى معهم بالتوقيت الزمني الذي سأجده مناسبًا.

ولدى عرضي على آمر الجناح الفني الذي تعاطف كثيرًا معي لأن له معرفة وثيقة بي، ومنحني إجازة لمدة عشرة أيام لأعود منها وأستلم كتاب نقلي إلى وحدتي الجديدة بمعسكر الرشيد ببغداد، استنادًا لتنفيذ الأمر الذي كان قد صدر أثناء الفترة التي كنت فيها بإيران بموجب النظام المعمول به بتلك الفترة، على تبادل منتسبي تلك القاعدة النائية على الحدود الأردنية مع زملاء لهم ببقية القواعد الجوية المنتشرة بكل العراق، باستثناء منطقة كوردستان عند إتمام منتسبي القاعدة لعامين من الخدمة فيها..

وعندها انطلقت حرًا غير مقيد تحملني رياح الشوق لأهلي وكل أصدقائي وجيراني في بغداد، التي وصلتها مساءً لأهل بيتي الذي اشتقت إليه كثيرًا بعد أن فارقته لأحد عشر شهر من العذابات المليئة بالحوادث المثيرة والخطيرة بنفس الوقت، ولا زلت أذكر أن والدي رحمه الذي قال لي أول دخولي عليهم جملة واحدة فقط من غير أن يسألني أين وكيف قضيت فترة اعتقالي، لأنه بطبعه كان قليل الكلام: أحمد الله على رجوعك سالمًا إلينا.. وعندها تملكتني الرغبة أن أسأل نفسي للمرة الأخيرة بختام تلك الرحلة إن كنت قد ندمت على تلك الخطوة التي بدأتها من عتبة ذلك البيت في العام الماضي، لأدور بفلك الدنيا ومخاطرها ثم أعود لنفس نقطة البداية ببيتي وبأحضان أهلي؟، فوجدت نفسي غير نادم على اتخاذي لذلك القرار، الذي من خلاله وبسببه حصلت على تلك التجربة التي جعلتني غنيًا بالمعرفة لتلك الآفاق الواسعة التي لم تكن تخطر

على بالي حتى في أحلامي، والأهم من كل ذلك فإني رجعت سالمًا ببدني ويقظًا بضميري وعاشقًا لوطني أكثر من أي وقت مضى من عمري..

وفي ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى بيتي ببغداد عرفت سر الاهتمام الذي سرع من قضيتي خلال المرحلة الأخيرة من اعتقالي ليتم اتخاذ القرار بإطلاق سراحي، وملخصه هو ما أخبرتني به والدتي رحمها الله، أنها مع أخي لؤي كانوا قد واجهوا الرئيس العراقي صدام حسين الذي استمع لشكواهم بعدم معرفتهم لمصيري بعد أن سلمت نفسي طوعيًا للسلطات الأمنية على أثر عودتي للعراق، وقد ذكروا له الخطوط العريضة لموضوعي، وطالبوه بمعرفة ماذا سيكون مصيري جراء ذلك، وبدوره سألهم إن كنت قد تعرضت للتعذيب أثناء التحقيق معي، فأجابوه أنهم لا يعلموا أي شيء عني منذ أن فارقتهم بدائرة الانضباط العسكري وذهبت للتحقيق، وأنهم يخشون علي من تغيبي بسجون الاستخبارات من غير تحقيق. فوعدهم أني سأنال تحقيقًا نزيهًا ولا مجال لأي جهة أمنية أن تخفيني بغياهب سجونها، لأن مكتبه سيتابع مجرى التحقيق معي من خلال المطالبة بنتيجة ما ستسفر عنه تلك التحقيقات، من غير أن يعدهم أنه سيعمل على إطلاق سراحي إذا ما ثبتت إدانتي خلال التحقيق الذي سيأخذ مجراه الطبيعي من غير أن يتدخل بحسم نتائجه لصالحي..

ولدى إطلاعي لتفاصيل تلك المقابلة التي حصلت من قبل والدتي وأخي لؤي رحمهما الله مع الرئيس صدام حسين، افترضت أنه كان قد أرسل بطلب نتيجة التحقيق معي، وليس إصداره أمرًا بإطلاق سراحي، وذلك ما جعل قضيتي تتحرك بعد أن أهملوني عمدًا لكي يستطلعوا هل أن هناك أية جهة عليا قد علمت بموضوعي أم أنني أصبحت من المنسيين، وهذا الاستنتاج يفسر سؤالهم المستمر لي أثناء التحقيق: هل كنت قد التقيت بأي شخصًا يعرفني وأعرفه قبل

وصولي لهم؟ وكنت بكل مرة أؤكد لهم أن أهلي يعلموا بخبر رجوعي للعراق، وبالنتيجة فإن مثولي الأخير أمام تلك اللجنة القضائية لم يأتِ بحسب السياق المعمول به هناك كنتيجة طبيعية، ولكن بسبب الموقف الحرج الذي وجدوا أنفسهم به أمام مطالبة ديوان رئاسة الجمهورية بإعلامهم عن نتيجة التحقيق معي، وهذا ما كان واضحًا بكتاب الاستخبارات العامة التي على سبيل المثال لم تعلم مديرية الاستخبارات الجوية التي حولتني لهم لأنها تحت أمرتهم، وأرسلت نسخة إلى جهة لم تشأ أن يعرف كل من يطلع على ذلك الكتاب الرسمي أنها ديوان الرئاسة لإطلاعهم على نتيجة التحقيق الذي انتهى بإطلاق سراحي.

من هذا كله أصبح واضحًا أنه لولا مراجعة أهلي لديوان الرئاسة لكنت قد قبعت بتلك الزنازين إلى ما شاء الله، ولكنت بعدها سأنال العذاب الذي لا يتحمله أي إنسان من استنطاقي لأقول ما تشتهي أنفسهم المريضة أن تسمع، وبذلك فإني كنت مدينًا بحياتي لأهلي بالدرجة الأولى ثم للرئيس صدام حسين لأنه لم يهمل موضوعي، وإن كان لم يتدخل بشكل مباشر ليطلق سراحي ويخلصني من الأيادي الآثمة لأولئك السفاحين، وأنا الذي خرجت على نظام حكمه من خلال رفع السلاح ضده بتلك الفترة عندما اعتبرته عدوي الأول، لأتحول بعدها وأشد على يديه وهو يطرق بيد من حديد على تلك الرؤوس الفارسية العفنة بإيران من خلال عدوانها الغاشم على العراق، حتى بات شخصه هو العائق الرئيسي بإفشال مشروع تصدير ثورتهم الحمقاء للعراق، وهي بحقيقتها مخطط عدواني توسعي قومي شوفيني، سكن بعقولهم المريضة التي كانت تحلم بتحقيقها على أرض العراق، ومع شديد الأسف تمكنوا لاحقًا من تنفيذها بالكامل من خلال التخادم مع الاحتلال الأمريكي للعراق..

وعليه فإني خلصت لنتيجة تبلورت جراء كل ما اطلعت عليه من خيانات رخيصة أثناء مسيرتي برحلة عذابي، ناهيك على النهج العدواني للفرس بدق طبول الحرب على وطني العراق من خلال ما اطلعت عليه في إيران، وما ترتب علي بعدها من دين خلص رقبتي من هلاك يسبقه بالتأكيد عذاب شديد من قبل جلاوزة الشعبة الخامسة لو كنت قد بقيت بين أيديهم، وعليه فإن صورة الرئيس صدام حسين أصبحت مقبولة عندي، وأنا الذي رفعت السلاح بوجه نظام حكمه من خلال انخراطي بسلك البيشمركة الكوردية، على الرغم من الممارسات التعسفية التي مارسها نظام حكمه بقمع حرية مواطنيه، وباعتقادي أن الجزء الأكبر منها كان خارج نطاق سيطرته عليها، ومنها تلك التي طالتني بالشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية، وهذا لا يعفيه من المسؤولية بمحاسبة كل من كان يعمل بالخفاء على استعباد الناس وإيذائهم عن عمد.

ولكني بفترة لاحقة سحبت تأييدي له ولسياساته على أثر الضربة الكيمياوية التي وجهت لأهلنا العراقيين في حلبجة، سواء بقرار مباشر منه أو من قبل من كان محسوبًا على نظام حكمه، نتيجة لتواجد الجيش الإيراني الذي اجتاز الحدود العراقية بمساعدة رخيصة من حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني الذي كان ولا زال يتزعمه جلال الطالباني، وقد قتل بتلك الواقعة التي كانت سُبة بجبين الإنسانية آلاف من العراقيين الكورد الأبرياء.

ثم عمل لاحقًا على تهجير عشرات الآلاف من القرويين الكورد عن قراهم الوديعة بعملية عسكرية سيئة الصيت سميت بالأنفال، ولم يكتفِ بذلك الحد، فأقدم على احتلال الكويت، وجراح العراقيين من حربهم الدفاعية ضد إيران لم تلتئم بعد، بتوقيت غير مدروس مبني على الانفعالات العصبية التي جاءت نتيجة استدراجه من قبل حكام الكويت، وهو سبب لم يكن مقنعًا لإدخال العراق بتلك

الدوامة التي لا زال العراقيون يدفعون ثمنها غاليًا، ليكون هو المتسبب الرئيسي بهلاك رجالنا وتجويع أطفالنا جراء تلك الخطوة التي قدم فيها كبريائه الشخصي على مصلحة العراق ومستقبل مواطنيه، بالوقت الذي كنا نراه قد انصرف هو وعائلته وكل من كان يحيط به لأن ينعموا بالعيش الرغيد بقصورهم الفارهة خلال سنوات الحصار الجائر على الشعب العراقي بعد أن قامروا بحياتنا وصحة ومستقبل أولادنا الذين هلك أكثر من مليون طفل منهم نتيجة فقدان الدواء، وكان ابني البكر "توروز" واحد من أولئك المغدورين بمقصلة الحصار الدولي على العراقيين وليس على من كان يحكمهم.

وبعد كل ذلك الدمار الذي ألحقه بنا وبما شيده وبناه على مدى فترة حكمه الطويل، لم أجد أمامي من مخرج إلا التمني أن يزاح من السلطة، ولكن ليس على النحو الذي أزيح به من قبل المحتل الأمريكي في بداية غزوه للعراق، لأني تمنيت له أن يقضي نحبه على فراشه وهو بعيد عن الأضواء، ليصبح بعدها اسمًا منسيًا، لا أن يقاتل الأمريكان ويقاوم غزوهم ثم يقبضوا عليه بعد أن حطموا هيكل الدولة وكل مؤسساتها، ثم يصفى جسديًا على يد الأراذل من عملاء الاحتلالين؛ الأمريكي الغاشم والإيراني اللئيم.

وعندها كانت له وقفة الرجال التي لا تهاب حبل المشنقة لينال المجد والمنزلة الرفيعة التي لم أتمناها كخاتمة لحياته، ولكنه رغمًا عني وعن كل خصومه دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وهذا ما جعلني أتعاطف معه وأحترمه من جديد نتيجة تلك الوقفة الشجاعة والموقف البطولي الذي اعتمده بأن لا يترك العراق ويهرب كالخفافيش لخارجه، ليبقى داخل الوطن يواجه مصيره ويقاوم المحتلين ومن جاء معهم على ظهور دباباتهم..

وعودة لموضوع إطلاق سراحي فإني بعد أن وجدت نفسي حرًا طليقًا، ظهرت لي حينها تبعات وانعكاسات لتلك المرحلة التي مررت بها برحلتي مع العذاب، على المستوى الاجتماعي والعسكري بحياتي الجديدة، ففي الجانب الاجتماعي ترتب علي أن أخسر أغلب صداقاتي لمن علم واطلع أني كنت في إيران، ومنهم من كان صديقًا لي منذ أيام الصبا والطفولة، باستثناء صديقي الحميم الذي كان يعمل بدائرة الانضباط العسكري، وهو الذي كان يعرف كل التفاصيل الحقيقية لموضوعي، وبفترة لاحقة التبس عليه الأمر لأنه قد نسى أيًا من الأمرين كان هو فعلاً قد حدث معي بتلك الرحلة، ولكنه استمر معي بصداقته على الرغم من التحذيرات والضغوط التي كانت تمارس عليه من قبل أهله، خشية عليه من تبعات تلك الصداقة الحميمة، باعتباري بحسب ظنهم كنت تحت المراقبة الدائمة من قبل الأجهزة الأمنية، وهو أمر عاري من الصحة لأن المراقبة التي كنت أشعر بها كانت بداخل وحدتي العسكرية بشكل لم يكن ملحوظًا لغيري، باعتباري كنت كأي عسكري أقضي معظم وقتي بالعمل بها وذلك أمر لم أكن متضايقًا منه ما داموا لا يتعرضوا لي بالسوء..

وأيضًا كان لدي صديق آخر بقي متمسكًا بصداقته لي، وكان صاحب محل خياطة نسائية، وكنت ألتقي به كل يوم تقريبًا وقد كان على إطلاع بأمر أولئك الأصدقاء الذين نفروا مني، وللأمانة أقول إنني كنت بقرارة نفسي قد أعطيت العذر لمن كان يتهرب من لقائي، ولكني ببعض الأحيان كنت أتضايق نفسيًا لبعض الممارسات غير العقلانية لهم، ومثال ذلك أنه قد صادف بإحدى المرات عندما كنت أتمشى بمنطقة سكناي وصادف مروري ببعض الأصدقاء الذين لم ألتق بهم منذ فترة طويلة واشتقت للقائهم، فتوجهت نحوهم بوقفتهم تلك لكي أسلم عليهم وأتفقد أحوالهم، وإذا بهم ينفروا هاربين بشكل عشوائي إلى ذات اليمين وذات الشمال بمجرد أن رأوني قادمًا نحوهم، وكأني كنت مصابًا بمرض معدي والعياذ بالله، لأجد نفسي حينها وحيدًا بذلك المكان، باستثناء صديقي صاحب

محل الخياطة الذي لاحظ ذلك الأمر وفتح لي باب محله من أجل أن يضيفني، مرحبًا بي بحرارة بالغة بعد أن رأى ما كان من أمر أصدقاء الأمس معي، وكأنه بذلك التصرف النبيل كان يتحدى من كانوا يزعمون أني تحت المراقبة المشددة، وبذات الوقت مجددًا لعنوان الصداقة بيننا، ولأني بطبعي وفي لكل صديق صدوق فلقد صارحته بفترة لاحقة بحقيقة أمري، فما كان منه إلا أن تمسك بي أكثر من سابق عهد الصداقة التي كانت تجمعني وإياه..

وقد يطرأ سؤال على بال القارئ الكريم الذي يطلع على سطوري هذه، لماذا كنت مصرًا على ملاقاة أولئك الأصدقاء الذين تنكروا لي؟! فأقول إنه لم يكن بوسعي أن أعيش وحيدًا بدنياي لأنهم كانوا كل دنياي، على أثر خشيتي من تأسيس أية علاقة جديدة مع أصدقاء آخرين لا علم لي بخلفيات حياتهم وخفايا أسرارهم بعد ذلك الكم الهائل من المشاكل التي اطلعت عليها بسجن الشعبة الخامسة للاستخبارات، عندما أتهم بعض الأبرياء منهم بتهم التستر والتذمر والتهجم جراء عدم تحسبهم لتلك الصداقات الجديدة التي أقاموها مع بعض الناس..

واستمر حالي على ذلك النحو المخجل مع أصدقاء الأمس إلى فترة طويلة حتى تأكد لدى كل الذين نفروا من لقائي أني لست كما صورت لهم عقولهم الجبانة، وأصبح شكهم يأخذ أبعادًا معاكسة لما سبقه من شك، ليتصوروا بهذه المرة أني كنت عنصرًا للاستخبارات أو ما شابه ذلك بسبب استمراري بالخدمة العسكرية وعدم تعرضي للاعتقال والأذى من جديد، وهم لا يعلموا أن قرار استمراري بالخدمة العسكرية كان حتمًا من أجل ألا أغيب عن ناظر من أطلق سراحي. ولكني أثنائها كنت قد استغنيت عن تلك الصداقات الكرتونية الهزيلة لأني تزوجت وكونت لي عائلتي الجديدة بعد ثلاثة أعوام من تاريخ إطلاق سراحي وانصرفت لرعاية أسرتي التي بنيت أساسًا لها.

وعلى ذكر العلاقات الاجتماعية وما حصل معي في بغداد، فهو أمر لم ينسحب على علاقتي بأقاربي بمحافظة السليمانية بكوردستان العراق، على الرغم من أن ولا واحد منهم سواء كانوا أبناء عمة أو الآخرين من أبناء عمومتي قد اتصل بأهلي ليسأل عن مصيري عندما كنت معتقل لفترة أربعة شهور من سجني بدائرة الاستخبارات، ومع ذلك فإني قد عاودت التواصل معهم، وهم بدورهم قد فتحوا بيوتهم لي حبًا ومودة واحترام، حتى أكرمني أحد أولاد عمتي بتزويجي من ابنته الوحيدة والتي أنجبت لي ولدي البكر نوروز، الذي ملأ حياتي بهجة وسرورًا وأنساني وجوده كل العذابات التي عشتها حتى اختطفه الموت وهو بعمر الثالثة عشر ربيعًا، ورحل من بين أحضاني ليذهب لخالقه وهو نقي ناصع، لأعيش من بعده والحسرة تعتصر قلبي على ذلك الفراق القسري والأبدي الذي لا زالت جمرته متقدة بكبدي، ثم أنجبت لي بعده ولدًا آخر أسميته ميران ثم ابنة أسميناها ناز، وفي مهجرنا ببريطانيا رزقنا بابنة أخرى أسميناها مينا..

ورجوعًا لتبعات عودتي للعراق بجانبها المدني لم يبق إلا أن أذكر أن أخي لؤي النورسي رحمه الله كان في الفترة التي تلت خروجي قد استبسل في القتال الدائر على جبهات القتال حينها ونال نوطًا للشجاعة، وكان حافزه بالتصدي للعدوان الفارسي الغاشم هو أنه كان قد وضع نصب عينه تلك الصورة التي نقلتها له عن مشاهداتي بأقفاص الأسرى العراقيين بإيران، وبقي مرابضًا على خط النار بتلك الحرب حتى انتهائها بالنصر بعام ١٩٨٨، وبعد انتهاء الحرب بعدة سنين أحيل إلى التقاعد، ومارس مهن عديدة من أجل لقمة العيش وضنكه بأيام الحصار على العراق، ثم سافر رحمه الله مع كل أفراد عائلته إلى ليبيا وتوفى هناك ودفن بمدينة سبها بوسط الصحراء الليبية.

أما بالنسبة للانعكاسات التي ترتبت على حياتي بجانبها العسكري لما بعد إطلاق سراحي، فإني كنت قد باشرت العمل بوحدتي العسكرية الجديدة التي كانت معملاً للمعدات الأرضية للقوة الجوية بمعسكر الرشيد بالقرب من سكني ببغداد، وقد سبقتني تفاصيل حكايتي إليها قبل أن أباشر العمل فيها وهو أمر لم أجد فيه أي حرج، وجعلت نفسي منذ بداية التحاقي بتلك الوحدة أن أصب كل جهدي بعملي الميكانيكي الفني، الذي كنت مختصًا به ومتفوقًا فيه على غيري من المختصين بنفس تلك المهنة.

من جهة أخرى فقد كنت من خلال عملي بتلك الوحدة العسكرية فاشلاً بالناحية الإدارية، لأني لم أكن صارمًا بمحاسبة المقصرين على النحو المطلوب مني عسكريًا لمن هم تحت إمرتي من الجنود وضباط الصف الذين هم من نفس مهنتي خشية تسببي عن غير عمد بظلم أحدهم، وأنا بطبعي أصبحت أبغض كل ظالم متجبر، حتى أنني كنت قد غيرت دعائي لربي الذي كنت أدعوه على مدى الفترة المنصرمة من حياتي أن يجعلني مظلومًا ولا أكون ظالمًا، فغيرت دعائي لأدعوه سبحانه وتعالى أن يجنبني الظلم بكل أشكاله ليجعلني لا مظلومًا ولا ظالمًا لأن الكيل قد طفح بي ولم أعد أتحمل الظلم والظلمة.

وبعد أن استقرت أحوالي بتلك الوحدة، ومرت سنين على إطلاق سراحي بدأت أكتب العرائض الواحدة تلو الأخرى إلى مديرية الاستخبارت الجوية من أجل تصحيح تلك الفقرة التي تتعلق بالعفو عن الهاربين لمن كانوا بخارج العراق وتم شمولي بها، باعتباري لم أهرب كما ثبت بإفاداتي التي ذكرتها بكل التحقيقات التي أجريت معي، وكذلك لأني لم أكن بدولة أخرى كما أشار لها قرار العفو، لأن سكوتي وعدم مطالبتي بتصحيح ذلك الوضع معناه قبولي بذلك القرار أني فعلاً كنت هاربًا إلى إيران، وهو أمر يعني أن السكوت لن يصب

بصالحي، وفي سبيله كنت قد دفعت الثمن غاليًا أثناء تلك التحقيقات السقيمة وما ترتب عليها من معاناة صعبة عندما كنت معتقلاً بالشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية العامة.

ولأني لم أتلقَ أية إجابة على كل العرائض التي وجهتها للاستخبارات الجوية؛ توجهت بعدها بكتابة طلب لقيادة القوة الجوية طلبت فيها السماح لي بمواجهة قائد القوة الجوية، بعد أن ذكرت له الأسباب الموجبة لذلك الطلب، فجاءني الرد عن طريق وحدتي بالموافقة على مقابلة معاون قائد القوة الجوية للأمور الإدارية، كنا حينها بعام ١٩٨٥، فذهبت لمقابلته وكان رجلاً طيبًا بخلقه، وأخبرته بموضوعي على نفس النحو الذي ذكرته أثناء التحقيقات معي، وقد أنصت لي باهتمام ولم يقاطعني إلا عندما جاء ذكر الپاسدار الإيراني بسياق كلامي، وقال لي:

– بعام ١٩٧٢ لم يكن بإيران لا پاسدار ولا ثورة إسلامية، فكيف تفسر ذلك؟

فقلت مؤكدًا:

– لقد كنت بإيران بعام ١٩٨٢ وليس قبلها بعشرة أعوام.

وعندها صدم الرجل من تلك الأقوال التي لم يتقبلها عقله، فأكدت له أن هذه الأقوال مبنية على الوقائع، ولا يستطيع أحد أن يبتدع كل تلك المشاهدات التي عشتها وعايشتها بإيران لو لم يكن قد خضع للتحقيق في الشعبة الخامسة التي أفرجت عني لصدق أقوالي، ومحاضر التحقيق موجودة لديهم تثبت ذلك وبإمكانك التحري عنها، ولأني وجدته ينصت لي باهتمام تشجعت وقلت له كلامًا بغاية الجرأة:

– إني من هذه البناية التي يتواجد فيها مكتب السيد قائد القوة الجوية الذي هو على بعد خطوات منا، أصرح لك بكامل قواي العقلية أنني كنت قبل ثلاثة أعوام

بعاصمة العدو الإيراني طهران، والقادم منها يكون واحدًا من اثنين: أما أن يكون خائنًا للوطن وأهله ويجب أن يلقى مصيره الذي يستحقه، أو أن يكون مواطنًا صالحًا فيعاد له اعتباره، ولا أطلب من وراء ذلك جزاءًا أو شكرًا من أي أحد. علمًا أنه ليس هناك حالة وسط بين تلك الحالتين، وأنا أطلب من سيادتك أن تتحقق لتعرف أيهما كان موقعي من تلك الحالتين، علمًا أني مقدر لخطورة ما أقوله إلى درجة تجعلني أجزم ألا أحد بهذه الأيام يستطيع أن يقص لأقرب الناس له أنه أثناء ضغوطات أحلامه قد ذهب لإيران والحرب لازالت قائمة بين العراق وإيران، فما بالكم وأنا قد تواجدت بها عن جد وحقيقة وذقت فيها من مُر العذاب الذي لا زال يعيشه إخوتي الأسرى بكل لحظة هناك.

عندها أدرك الرجل مدى جدية كلامي ووعدني أنه سيتابع الموضوع بنفسه، فانصرفت عائدًا لوحدتي لأتابع بعدها بفترة من الزمن مدى جدية الوعد الذي قطعه على نفسه، فعلمت من بعض العاملين بمكتبه أنه قد أرسل كتابًا شديد اللهجة إلى مديرية الاستخبارات الجوية يطلب منهم الاستيضاح عن ما ذكرته له بعريضتي التي قدمتها له وما قلته له أثناء مقابلتي له، وهو أمر لن تستطيع الاستخبارات الجوية أن تهمله كما أهملت كل مراسلاتي معهم عندما لم يجيبوني عليها.

انتظرت لفترة أخرى ثم راجعت بعض العاملين بمكتبه ممن كانوا متعاطفين معي، لأجد أن الاستخبارات الجوية لم تتجرأ كما توقعت لتفاتح الاستخبارات العسكرية العامة التي حققت بقضيتي، لكي تجيب على طلب معاون قائد القوة الجوية، وبدلاً من ذلك فاتحوا استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية للاستيضاح عن موضوعي، فأجابتهم استخبارت الفرقة الرابعة أني كنت مختطفًا من قبل المخربين (البيشمركة)، والتحقت بهم حال تمكني الهروب منهم،

واستنادًا لتلك الإجابة أرسلت الاستخبارت الجوية نسخة من كتاب استخبارت السليمانية الذي وصلها بناءًا على استفسارها عني، إلى مكتب معاون قائد القوة الجوية الذي كنت قد قابلته ووعدني بمتابعة موضوعي، وبدوره فقد فاتح معاون القائد دائرة الشؤون القانونية بقيادة القوة الجوية، يطلب منهم الموقف القانوني من تلك القضية بعد أن أرفق كتاب استخبارات الفرقة الرابعة الذي وضح بعض الجوانب المهمة من تلك التي ثبتوها بسجلات تحقيقهم معي.

عندها تيقنت أن مطالبتي قد جاءت بنتيجة وما علي سوى الانتظار، وفعلاً جاءني الرد بعد فترة قصيرة إلى وحدتي بكتاب مرسل من قبل مديرية الشؤون القانونية للقوة الجوية، وقد أرسلت تلك المديرية نسخة من نفس ذلك الكتاب إلى معاون قائد القوة الجوية للأمور الأدارية، وكالآتي: لدى تدقيق أوراق نائب ضابط هشام النورسي تبين أنه ليس هاربًا، وقد اختطف من قبل المخربين (الپيشمرگة) وقد استطاع الهروب منهم والالتحاق باستخبارات الفرقة الرابعة للفيلق الأول، واستنادًا لما ورد بأعلاه يرد اعتباره حفظًا لحقوقه..

ولدى اطلاعي على محتوى ذلك الكتاب الذي لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى موضوع تواجدي ثم رجوعي من إيران، بعد أن دخلت وخرجت من قفص الأسرى العراقيين بطهران، اكتفيت بذلك بعد أن اقتنعت بما جاء فيه من فقرات قانونية لكي أستمر بالعيش بسلام، وعليه فقد شطبت وحدتي من كنيتي العسكرية المثبتة لديهم، تلك الفقرة التي كانت تذكر أنني كنت هاربًا، واستنادًا لذلك فقد تمَّ صرف ما استحقيته من رواتب لكل تلك الفترة التي دامت بحدود الأحد عشر شهرًا، وكأنها كانت الثمن المادي والمعنوي لكل ما مررت به برحلتي مع العذاب.

وبعد رد الاعتبار الذي حصلت عليه أصبحت قادرًا أن أرفع رأسي أثناء مجادلتي لأي مسؤول بعثي يفاتحني بضرورة الانضمام لصفوف حزبه، وقد تحقق ذلك عندما كلمني أحدهم من برجه العالي ليفاتحني بلهجة الآمر بذلك الموضوع، فقلت له:

– لماذا علي أن أنتمي لحزب البعث وأنا غير مقصر بواجبي العسكري من خلال مهنتي الفنية التي أمارسها بكل جد وتفاني وإخلاص؟! أرجوك أخبرني أين تكمن الضرورة!

– من أجل أن تكون محصنًا بأفكارك ضد أي اتجاه معادي للوطن.

فقلت متبسمًا:

– أنا كنت بوسط تلك الأجواء المعادية التي تتكلم عنها، وفي طهران عاصمة العدو الفارسي على وجه التحديد، ولم يستطع أحد منهم وأنا بين أياديهم أن يعبث بعقلي ويغير أفكاري، على الرغم من كوني مستقلاً بانتمائي، لأني وطنيًا بتوجهاتي وعقيدتي العراقية، فهل كنت أنت ستصمد لو كنت مكاني بقفص الأسرى العراقيين بطهران؟!

فسكت ولم يعرف بماذا يجيب، وكأني قد لطمته على رأسه بنعل أبو القاسم الطنبوري، وبذلك تخلصت منه ومن شره كما يقال بمثل هذه المواقف. هذا ما كان من ناحية الضغوط التي كانت تمارس علي من قبل أعضاء منظومة حزب البعث بوحدتي العسكرية، وقد انتهت معي بشكل قطعي لفترة لاحقة وحتى تاريخ إحالتي للتقاعد بعام ١٩٩١ على أثر انتهاء الحرب بالكويت، وعليه فإنني كنت المستقل الوحيد الذي بقي خارج تنظيم حزب البعث بوحدتي العسكرية بعد أن استسلم كل منتسبيها نتيجة الضغوط التي كانت تمارس عليهم، من خلال التهديد بنقلهم إلى وحدات نائية بعيدة عن مناطق سكناهم، وذلك أمر لم يكن تطبيقه علي ممكنًا لأني كنت الوحيد بتلك الوحدة الذي يجيد العمل بإتقان

بمهنته الفنية، وهذا يعني أنه لم يكن بمقدورهم الاستغناء عن خدماتي لعدم توفر البديل الذي بإمكانه أن يشغل مكاني.

وبالرغم من ذلك؛ لم أهنأ بالطمأنينة لأن جبهة أخرى كانت مبطنة بنوايا مشبوهة قد ناصبتني العداء من المنافقين ذوي التعامل بوجهين، الوجه الأول لهم هو العلني المعلن أنهم بعثيون مخلصون ومواظبين بكتابة التقارير الحزبية ضد كل من هب ودب تعبيرًا منهم على إخلاصهم لحزب البعث الحاكم آنذاك، بينما الوجه الثاني لهم مبطن ولم يشعر بوجوده سواي لأني كنت مستهدفًا من قبلهم، ولأني كنت قد رأيت مثل تلك الوجوه المنافقة بقفص الأسرى العراقيين بطهران عندما وجدتها على حقيقتها بعد أن زالت كل أقنعتهم، وتبين لي أن ولائهم الطائفي قد طغى على نفوسهم المريضة ليكون البديل الحقيقي لولائهم السابق الذي كانوا يدعوه عندما كانوا في العراق، باعتبارهم عراقيين مخلصين للوطن وأهله.

هذا أيضًا ما ظهر على السطح بفترة لاحقة عندما جاء المحتل الأمريكي للعراق وارتموا تحت بسطاله متنكرين لكل عنوان وطني كانوا يتبجحون به. وبالتالي فإن تلك الجبهة المنافقة قد تبنت على عاتقها محاربتي بشتى الوسائل الدنيئة انتقامًا مني لأني كنت أنتهز أية فرصة حديث لأوضح مدى خسة ونذالة الفرس ناهيك عن ذكري لتفاصيل الخزعبلات والخرافات التي اطلعت عليها بإيران، وكان ذلك العداء المبطن هو على نفس طريقة عداء ذلك السجين الدعوجي الذي كان يناصبني العداء في الشعبة الخامسة، بصفته أقدم سجين، والكل هناك كان يعلم أنه من المحكومين بالإعدام، وبالتالي يتحاشون لسانه المشاغب.

وعليه فقد كانت تلك الجهة المبطنة النوايا تنتهز أية فرصة للإيقاع بي، وكانوا ثلة من العاملين تحت إمرتي، ويسندهم بذلك آمر القسم الذي كنت أديره ويدعى النقيب قاسم بادي هاون، وكلهم كانوا من سكان محافظات الفرات الأوسط

بكربلاء والنجف وبابل، حتى تمكنوا بعد عدة محاولات خبيثة من الإيقاع بي، عندما حاسبت أحدهم بسبب إهماله لواجبه الذي كلفته به، وأجابني باستهتار أن النقيب قاسم قد منحه إجازة لعدة أيام، وكان المفروض بذلك النقيب بحسب سياق العمل أن يستشيرني على الأقل قبل منحه الإجازة لأني مطالب من قبله ومن آمر الوحدة بالإنتاج المحدد بخطة عملنا، وبسبب حرصي على استمرار الإنتاج بالشكل المطلوب، ثارت ثائرتي وشتمت النقيب قاسم ومن أعطاه تلك الرتبة، وعليه وصل الخبر أسرع من البرق لذلك النقيب الذي بدوره اتجه فورًا لآمر الوحدة ليشتكيني عنده باعتباري قد شتمته وشتمت من منحه رتبة نقيب، وقد فسرها أني قد شتمت الرئيس صدام حسين، باعتبار أن ذلك النقيب قد أصبح ضابطًا بموجب مرسوم جمهوري، ومن أجل أن يثبت علي تلك التهمة التي أخذت أبعاد أكبر من حجمها، جاء بتلك الثلة الطائفية كشهود عيان ضدي، وعندها لم يتمكن آمر الوحدة أن يتكتم على تلك الشكوى بالرغم من احترامه لي وتقديره لعملي الدؤوب كعنصر كفء وعسكري منضبط، فأودعني السجن مرغمًا وأمر بتشكيل لجنة تحقيقية من أجل إحالة الموضوع للجهات المختصة.

وتلك الجهة كانت محكمة الثورة بالتأكيد التي كانت تحكم بمثل هذه الدعاوي التي تمس شخص رئيس الجمهورية بعقوبة الإعدام، وهذا ما ذكره آمر الوحدة لذلك النقيب، أنه إذا أصر بشكواه فهذا يعني أنه سيقتلني بشكل غير مباشر، ويبدو أن هذا ما كان هو وزمرته يتمنوه لي، فسلمت أمري لله لأني لم أجد مخرجًا من تلك المؤامرة التي حيكت ضدي بإتقان، ولم أكن لأصدق أن تلك الثلة الطائفية الخبيثة كانت ستقدم على مثل تلك الفعلة، وأكثر شيئًا توقعته منهم بغرض إيذائي هو كتابتهم لتقارير وشاية حزبية ليست لها أية قيمة، ولكن أن يلفوا حبل المشنقة على عنقي بأسم الوطن وحرصًا على رئيسه فذلك أبعد مما تصورته أن يحدث معي منهم.

من ناحية أخرى؛ فلو أنني كنت منتميًا لقبيلة أو عشيرة عربية معروفة لما كانوا قد فعلوها أصلاً، لما سيكون لفعلهم الجبان هذا من تبعات ستطال حياتهم بعد تسببهم بموتي، ولكن أن أكون من أصول كوردية فذلك يعني أن ظهري كان مكشوفًا ودمي مهدورًا، من غير أن ينتقم منهم أحدًا لفعلتهم الجبانة..

فبقيت قابعًا بسجن الوحدة وكنت حينها قد تزوجت حديثًا، وابني نوروز لم يكن قد تجاوز بعمره سنة واحدة، وأثنائها كان أخي لؤي رحمه الله قد جاء من جبهة القتال بإجازة دورية، ولدى سماعه بخبر سجني جاء لوحدتي بكامل سلاحه الشخصي وهو يحمل على صدره نوط الشجاعة الذي ناله نتيجة استبساله بإحدى المعارك بجبهات القتال ضد أمة الفرس اللعينة، ودخل مباشرة على ذلك النقيب من غير أن يذهب لآمر الوحدة، فقلب كل الموازين لأنه هدده بالعلن وبصراحة تامة أنه لن يجعله يهنأ بالحياة إذا ما أصر بشكواه ضدي وتسبب بقتلي، ثم تركه مذهولاً وانصرف من غير أن يجادله أو يستعطفه أو ما إلى ذلك من حديث عاطفي يجب أن يقال بمثل تلك الحالة، فما كان من ذلك النقيب الطائفي الذي وضع إيران نصب أعينه وأراد الانتقام مني من خلال تقديمي قربانًا لها باعتبارها الوطن الأم، والحاضنة لمذهبه الذي جعله يعلو على كل المسميات الوطنية، وللأسف الشديد هذا ما أصبح سائدًا بالعلن الآن لأمثاله في العراق، ممن جاءوا من إيران بعد أن ركبوا على الدبابة الأمريكية لينصبوا أوصياء على العراق الذي تبرأ منهم منذ زمن بعيد.

فما كان من أمر ذلك النقيب سوى أن يذهب إلى آمر الوحدة ليسحب شكواه ضدي نتيجة هلعه وجبنه، بعد أن عرف أني لست كما صورت له ثلته الطائفية أني كورديًا من غير أصول قبلية قد تثأر لدمي، بعد أن تيقن أن لدي أخًا لا يتوانى أن ينتقم منهم شر انتقام إذا ما أصروا على تسببهم بقتلي بتلك الطريقة الملتوية الدنيئة.

فانتهت تلك الأزمة بسلام بعد أن تابوا جميعهم من تكرار تلك الفعلة الجبانة على أثر تسلط الأضواء بما كان بنيتهم، وأصبحت سيرتهم بذلك الفعل الدنيء على كل لسان، وبفترة لاحقة بعام ١٩٩١م اختفى بعض منهم بعد أن تخلفوا عن الخدمة العسكرية لاشتراكهم بصفحة الغدر والخيانة بمناطق سكناهم في كربلاء والنجف وبابل، التي عاثوا هم ومن على شاكلتهم فسادًا وتدميرًا وانتهاك للحرمات بإسناد مباشر من الپاسدار الإيراني بتلك الصفحة الخيانية بامتياز عالي، وقد أصبح يطلق عليها بأيامنا هذه الانتفاضة الشعبانية المباركة! ولا أعلم بماذا كانت مباركة تلك الصفحة الدموية، وهي التي بدأت فور انتهاء العمليات العسكرية التي بدأت بالكويت من قبل قوات التحالف الدولي، وسُحق خلالها الجيش العراقي بعد أبى الرئيس العراقي حينها أن يسحبه من الكويت على أثر غزوه لها لعناده غير المبرر بوجه كل الدعوات الدولية التي ناشدته بذلك قبل بدء الحرب هناك..

وهناك أمر بغاية الأهمية كان قد حصل بعد إطلاق سراحي بثلاثة أعوام، مفاده أن توجيهًا قد صدر من وزارة الدفاع يحتم على كل فرد من منتسبي الوحدات الثابتة من كل الصنوف التي لم يتسنَ لها أن تشارك بصورة فعلية بالقتال الدائر بساحات المعارك، أن يقضي فترة معايشة أمدها ثلاثون يومًا بإحدى تشكيلات الجيش العراقي على طول جبهة القتال، فنظمت وحدتي قوائم بأسماء منتسبيها بعد أن وزعتهم على عشر وجبات، لترسلهم إلى قاطع العمليات القتالية التي كانت قريبة من محافظة البصرة، فعملت كل جهدي لأن أكون بطليعة تلك الوجبات، وقد تمكنت بسهولة أن أكون ضمن الوجبة الأولى، في الوقت الذي كان فيه الآخرون من زملائي يسعوا لأن يكونوا ضمن الوجبة العاشرة والأخيرة من تلك الوجبات، اعتقادًا منهم أن الدفع بتلك الوجبات لجبهات القتال لن يستمر إلى أن يأتيهم الدور بالمشاركة.

وفعلاً تمَّ ذلك وألغي العمل بذلك القرار عندما وصل الدور لوجبتهم العاشرة التي كانت تحوي حصرًا أسماء أصحاب الواسطات والنفوذ الحزبي والمادي والمعنوي، بحجة أن تلك المعايشة قد تسببت بخسارة القوة الجوية لبعض الطواقم الفنية العاملة بخط الطيران للأسراب الجوية، الأمر الذي تسبب بنقص ملحوظ في الملاك وذلك بالطبع انعكس سلبًا على آلية العمل المقتدر بفحص وتصليح الطائرات الحربية للقوة الجوية..

ذهبنا كوجبة أولى إلى قاطع العمليات في مدينة البصرة وكنا بحدود الثلاثين شخص بمختلف الرتب العسكرية، وسلمنا كتاب نقلنا لمقر الفيلق، الذي بدوره أرسلنا لمقرات الفرق ثم إلى مقرات الألوية ثم إلى مقرات الكتائب، حتى وصلنا إلى السواتر الأمامية من جبهة القتال حيث ترابض بعض التشكيلات العسكرية بمنطقة تدعى مجنون، وفيها أبار للنفط لم تكن مستثمرة، وكنا خمسة أفراد لأن عددنا كان يتناقص بكل مرحلة كنا نمر بها، ابتداءًا من مقر الفيلق وحتى الساتر الأمامي للجبهة بسبب أن معظم أفراد وجبتنا كانوا يحملوا رسائل واسطة لضباط بتلك التشكيلات التي مررنا بها؛ من أجل أن يستبقوهم بمقراتهم ولا يرسلوهم معنا لخط النار، وبذلك يعتبروا مشاركين بتلك الحرب من غير أن يتعرضوا للخطر.

وفي تلك المنطقة التي وصلناها للتو علمنا أن مقاتليها الأبطال كانوا قبل يومين قد صدوا هجومًا كبيرًا للإيرانيين عليهم، فتوزعنا على فصائل تلك الكتيبة ورابضنا بخنادقها من أجل أن نتحاشى القصف المدفعي علينا من قبل العدو الفارسي الذي كان مستمرًا على مدار الساعة.

وكان نصيبي بذلك التوزيع أن أكون بملجأ يضم خمسة مقاتلين لأكون سادسهم، بعد أن تزودت بكامل السلاح والعتاد الذي كان متوفرًا بكثرة، ولأن الوقت كان يمر بطيئًا بتلك الخنادق والأجواء المشتعلة بالنار بعد أن توقف الهجوم والقتال

المباشر على الكتيبة البطلة، فلم أجد ضيرًا أن أنقل لأولئك الأبطال ما سيترتب على أحدهم لو وقع بالأسر الإيراني من المهانة، التي اطلعت على تفاصيلها بالكامل، وهو حديث لم أجد له أذانًا صاغية من قبل أفراد وحدتي أو أصدقائي الذين نفروا مني، ثم طلبت منهم مساعدتي لكي أتمكن من الوصول للساتر الأمامي من كتيبتهم من أجل أن أرى بعيني فعاليات العدو الفارسي وجهًا لوجه، فأخبروني أنهم سيستبدلوا قريبًا الفصيل الذي كان بمواجهة العدو بفصيلنا الذي كان على الخط الثاني للقتال، وما علي سوى الانتظار ليومين آخرين.

وقد تمَّ لي ذلك بعد أن تقدمنا لنصبح بأعلى السدة الترابية بمواجهة الأعداء، وكان الفاصل بيننا وبين الإيرانيين بحيرة مائية طبيعية، فوقفت هناك بتلك اللحظة التاريخية من حياتي لكي أتأمل ذلك المشهد الذي جعلني أتصور ماذا يكمن خلف تلك القطعات الإيرانية، حتى وصلت بخيالي لطهران مستندًا بذلك على ما حدثني به بعض الأسرى العراقيين ببداية وقوعهم بالأسر، وبتلك اللحظات أمسكت بالمنظار المكبر، فرأيت الجنود الإيرانيين بالناحية الأخرى من تلك البحيرة بوضوح وكأنهم أمامي، وعندها سألت جنود ذلك الفصيل المقاتل عن السبب الذي يمنعهم من إطلاق النار عليهم وهم على مرمى بنادقنا القناصة، فأخبروني أنهم لو فعلوا ذلك وبدأوا بإطلاق النار فسيجيب الإيرانيون عليه بالمثل، وبذلك قد نتكبد بعض الخسائر، وعليه فإننا نوفر جهدنا إلى الوقت الذي يقرر به العدو الإيراني إطلاقه للنار علينا وعندئذ لن تسكت بنادقنا عن الإطلاق لتذيقهم الموت الزئام بعد أن تُزلزل الأرض من تحت أقدامهم.

وعلى الرغم من ذلك فقد قال لي أحدهم وكان يحمل بندقية قناصة: إني أرى من خلال منظار بندقيتي بعض الجنود الإيرانيين وقد أصبحوا بمرمى الهدف، فخذها لتقتل منهم ما شئت لكي تثأر لكل الأذى الذي لحقك منهم، فأخذت البندقية القناصة وكنت أجيد استعمالها، لأني تدربت على مثلها أثناء الفترة

القصيرة التي كنت فيها بيشمركة، فنظرت بمنظارها حتى أصبح ثلاثة من الجنود الإيرانيين بمدى مرماها، ولكني لم أستطع الضغط على زنادها لأني لم أجد الرغبة بقتلهم بدم بارد ولأنه ليس من الشجاعة بشيء، في الوقت الذي كنت متشوقًا لأن أقاتل كل إيراني تسول له نفسه أثناء هجومهم الذي كنا نترقبه بكل لحظة، ولكن القتل من أجل الرغبة بالقتل فقط ليس من الرجولة، ناهيك أنه لم يكن واجبًا للدفاع عن حدود الوطن، إضافة لذلك فإن من كان ضمن تسديد بندقيتي قد يكون مجبرًا على التواجد بتلك البقعة من أرضه، أو قد يكون أحد أبناء ذلك الرجل الإيراني الصالح الذي أطعمني وكساني بإحدى الاستراحات على طريق تسفيري من طهران للرضائية، فهل من المروءة أن يجازى الإحسان بالحقد والكراهية.

وأثناء تفكري بتلك الخواطر التي منعتني من الضغط على زناد البندقية القناصة، سألني صاحبها عن السبب الذي يمنعني من إطلاق النار على أولئك الجنود الإيرانيين، الذين كانوا أهدافًا سهلة من أجل قتلهم، فقلت:

– بصراحة إن هذا الفعل ليس من الشجاعة ولا من شيم الرجال.

– هذا ما نفعله نحن أيضًا على الدوام، ولكني خرجت عن هذا السياق وأعطيتك بندقيتي لأني اعتقدت أنك ترغب بقتل نفر منهم انتقامًا لما فعلوه بك وبحق إخواننا الأسرى هناك.

فقلت ممازحًا من أجل أن أغير ذلك الموضوع الذي كشف لي عن جانب إنساني بشخصيتي:

– الحقيقة أنني عندما نظرت إليهم من خلال منظار هذه البندقية القناصة لم أرَ أحد من أولئك الإيرانيين الذين آذوني لكي أنتقم منه وأقتله شر قتلة.

وبقينا مرابضين على ذلك الساتر الترابي لأيام، كنا نتراشق ببعض الأحيان بكل وسائل الدفاع المتاحة بأيدينا لكي نرد على النار التي يطلقها علينا الإيرانيين، وانسحبنا من الساتر الأمامي لنُستبدل بفصيل آخر دون أية حوادث تذكر، لأن التراشق بنيران المدفعية والهاونات من كلا الطرفين كان منصبًا على الخطوط الثانية والثالثة للقوات المرابطة على جانبي جبهة القتال من الطرفين الإيراني والعراقي، حتى أمضيت شهرًا كاملاً مع أولئك الأبطال من غير أن يحصل هجوم جديد على تلك الكتيبة البطلة، وبهذا انتهت فترة معايشتي لهم بعد أن كسبت صداقات كثيرة مع أولئك الرجال الذين لم يعرفوا معنى للكسل أو الملل وهم مرابطين على حدود العراق، من أجل الدفاع عن الوطن ضد تلك الهجمة الفارسية اللعينة.

ولا يفوتني أن أذكر قبل أن أختم حديثي عن تجربة معايشتي للحرب ضمن قاطع مجنون للعمليات العسكرية؛ أن أحد المقاتلين هناك كان قد ذكر لي أثناء وصفه لتفاصيل المعركة التي دارت في الفترة التي سبقت التحاقي بهم، بأن القيادة العسكرية كانت قد زجت بتلك المعركة مجموعة من المقاتلين الكورد بمن يسموا حينها بأفواج الدفاع الوطني الكوردية، التي يطلق عليها تسمية الجاش من قبل الكورد بشكل عام، فتقدمت تلك القوة المسلحة وهم بزيهم الكوردي لتسترجع أحد الرواقم الذي احتلته إيران بتلك المعركة، وكان ضمن مساحة صغيرة مكشوفة من الأرض التي تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب، فقاتلوا بكل بسالة واستطاعوا أن يسترجعوا ذلك الراقم الذي حرروه بفترة زمن قياسية، ورابضوا به بانتظار أن يسلموه لأي تشكيل عسكري عراقي، وأثنائها تعرضوا لوابل النيران الكثيفة من المدفعية العراقية الثقيلة عن طريق الخطأ، باعتبار أن ذلك الراقم كان محتلاً من قبل العدو الإيراني ولم يكن لديهم علم بتواجد أولئك المقاتلين الكورد الذين حرروا تلك الأرض العراقية، ولدى وصول

القطعات العسكرية لذلك الراقم العراقي وجدوا ألا أحد من أولئك المقاتلين الكورد قد بقي على قيد الحياة، لأنهم قتلوا على أخرهم، وبذلك أصبحوا شهداء في سبيل العراق بعد أن كانوا مرتزقة لكل من يدفع لهم نقودًا أكثر.

وفي مفارقة أخرى قل ما تحدث بزمن الحرب بين أي بلدين، فإنه قد تسنى لي عن طريق أحد أبناء خالتي، وكان ضابطًا بإحدى المعسكرات التي تتواجد فيها أقفاص الأسرى الإيرانيين في محافظة صلاح الدين بالقرب من مدينة تكريت، بأن أواجه أولئك الأسرى الإيرانيين وجهًا لوجه وأحدث بعضهم بلغتهم الفارسية ثم أطلع على أحوالهم عن كثب بذلك المعسكر، وقد حدث ذلك عندما اصطحبني ابن خالتي وكان برتبة نقيب ويشغل منصب مساعدًا لأمر إحدى تلك الأقفاص، وذلك بناءًا على رغبتي بالإطلاع على أحوالهم ومقارنة ذلك بالحال المزري الذي رأيته بقفص الأسرى العراقيين بمعسكر دوژبان مركز بطهران.

وقبل وصولنا لذلك المعسكر الذي قصدناه من بغداد إلى تكريت، كنت أتفكر بالحال الذي سأجد عليه الأسرى الإيرانيين، وأثناء ذلك الطريق كنت قد رسمت لهم صورة غاية في الإذلال إن لم تكن أسوء من الحال الذي كان عليه أسرانا في إيران، مستندًا بذلك على مقارنتي كيف كان حالي بالسجون الإيرانية، وكيف استُقبلت في بغداد عندما دخلت زنازين الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية، ولذلك توقعت أن أرى الأسرى الإيرانيين محشورين بزنازين تكون بأفضل حالاتها أشبه بزنازين سجن أبو غريب، وبأسوء حالاتها تكون على نفس الإذلال الذي كان عليه أسرانا العراقيين بإيران.

لكني عندما وصلت اكتشفت أن حالهم كان مخالفًا تمامًا لكل التوقعات التي تخيلتها عن حالهم، لأني وجدتهم قد شغلوا قاعات كبيرة ونظيفة، وهي بالأصل كانت مخصصة لإقامة الجنود العراقيين من تلك الوحدات التي انتقلت لجبهات

القتال، وكانت تحيط بتلك القاعات المفتوحة أبوابها ليل نهار مساحة شاسعة من الأرض المفتوحة تصلح لأن تكون ملعبًا لكرة القدم، ثم السياج العالي الذي حوط ذلك المكان بالأسلاك الشائكة من خلال ثلاثة خطوط محكمة، الواحد تلو الآخر لمسافة ٥٠ مترًا عرضًا، ويلتف حول تلك القاعات وكل المساحة الشاغرة من الأرض، وبذلك كان من المضمون ألا أحد من الأسرى الإيرانيين له الحظ بتجاوز ذلك السياج الشوكي المحكم بإتقان، ولم يكن بذلك السياج من ثغرة سوى الممر الوحيد للدخول والخروج منهم وإليهم، وتتواجد فيه سيطرتين عسكريتين، الأولى منها كانت غير مسلحة بالجانب الذي يتواجد به الأسرى الإيرانيين، والثانية منها كانت مسلحة في الجانب الذي دخلنا منه بسيارة الجيب العسكرية، مرورًا بذلك الممر الضيق الذي يحيط به السياج العالي للأسلاك الشائكة، ناهيك عن خط الهاتف الذي كان يربط بين السيطرتين.

حتى وصلنا بعد ٥٠ مترًا إلى السيطرة العسكرية الثانية، ثم دخلنا لذلك الفضاء المفتوح الذي كان بالكامل مسخرًا ليعيش به الأسرى الإيرانيين بكل حرية، ومن غير مراقبة، ولهم أن يتجولوا به متى ما شائوا من غير أن يمنعهم أحد. وعندها اصطحبني ابن خالتي بجولته التفقدية للاطلاع على أحوالهم وما قد ينقصهم ليوفره لهم، فوجدت أن قسمًا منهم كانوا يلعبوا كرة القدم والقسم الآخر منهم كانوا منشغلين بلعبة رفع الأثقال وقسمًا آخر منهم كانوا بداخل القاعات يستلقوا على أسرة نومهم، والبعض الآخر كانوا جالسين على سطح تلك القاعات، ناهيك على أن البعض الآخر منهم كانوا من الجنود العربستانيين الذين يربون الدجاج والحمام لحساب ابن خالتي الذي كان يهوى تربية الدواجن بكافة أنواعها وأشكالها.

ولدى دخولنا إلى إحدى قاعاتهم وجدتها على درجة عالية من النظافة، وقد تراصت على جوانبها أسرة نوم الأسرى الإيرانيين، وأبوابها مفتوحة على مصراعيها لمن يدخل إليها أو يخرج منها، وبين قاعة وأخرى تواجدت الحمامات والمرافق الصحية النظيفة، وفي أخر جولتنا انتهينا بالمطبخ الذي كان بعض من الأسرى الإيرانيين قد تكفلوا بطبخ الطعام لكافة زملائهم الأسرى ولباقي منتسبي تلك الوحدة من الجنود والضباط.

ولدى مقارنتي لأحوال الأسرى بالجانبين العراقي والإيراني خلصت لنتيجة مفادها ألا مجال للمقارنة بينهم وبين أسرانا الذين كانوا يتحسرون على أشعة الشمس لكي تطالهم وهم قابعين تحت الحراب بأماكنهم التي لا مجال للحركة بداخلها، في الوقت الذي وجدت فيه أن الأسرى الإيرانيين كان لهم مطلق الحرية بالحركة كيف ما يشاؤون، ناهيك عن امتلاكهم لإدارة شؤونهم بأنفسهم، وباعتقادي أنهم لو قدر لهم أن يكونوا محتجزين بداخل سجون بلدهم لما كانوا سيحظوا بمثل تلك الخدمات المتنوعة التي اطلعت عليها شخصيًا. وبرأيي الشخصي أن الأسير، أي أسير من أي جيش في العالم يبقى ذليلاً وهو بعيد عن وطنه، مهما كان نوع الخدمات المقدمة له سلبًا أو إيجابًا، لأن الحنين للوطن هو شعور فطري لكل من رضع من ثدي أمه حليبًا طاهرًا.

وبعد تلك الجولة التفقدية طلبت من ابن خالتي أن يجمع الأسرى الإيرانيين لكي أكلمهم، فنادى على أرشدهم (مراقبهم) وكان عربستانيًا، لكي يجمع زملائه الأسرى في الفناء الخارجي القريب من تلك القاعات، بغرض الاستماع لشكاويهم. فنادى بهم مراقبهم فتجمعوا وقوفًا بطابور عسكري منظم وهم ينظروا لي باستغراب لأني كنت مرتديًا الزي العسكري الخاص بالقوة الجوية بلونه الأزرق، وهو أمر لم يكن مألوفًا لديهم بذلك القفص، وعندها همس لي

ابن خالتي أن أحدثهم بما أشاء، فوجهت لهم باللغة الفارسية الإيعاز بالجلوس (بشن) فجلسوا، ثم الإيعاز الثاني بالنهوض (بلانشو) فنهضوا جميعًا، ثم سألتهم عن نوع المعاملة التي يتلقوها من الحراس، فأجابوني أنها جيدة، وأضاف على قولهم هذا مراقبهم العربستاني الذي أكد أن الحراس لا يدخلوا عليهم، وهم متواجدون على الدوام عند نقاط التفتيش على البوابة الداخلية والخارجية، ثم توجهت بسؤال عدد منهم عن اسم المدن الإيرانية التي كانوا يقيمون فيها، فأخبرني كل واحد من أولئك الذي وجهت لهم سؤالي باسم مدينته، ولم يكن بينهم من كان يسكن بطهران، لكي أساله عن معسكر دوژبان مركز الذي كنت حبيسًا فيه، فاكتفيت بذلك القدر من الأسئلة، وعندها سألهم ابن خالتي عن طريق المترجم العربستاني إن كان لدى أحدهم شكوى، فلم يرفع أحد منهم يده لكي يتقدم بأي شكوى، فغادرناهم وأنا مستغرب بدرجة أكبر من اندهاشهم جراء حديثي معهم بلغتهم الفارسية، ومن تلك المفارقة التي جعلتني مرة بداخل أقفاص أسرانا العراقيين بطهران، ومرة أخرى بداخل قفص أسراهم في العراق، وشتان ما بين الحالين اللذين كنت عليهما بكل واحد منهما.